

كتب قداسة البابا شنودة الثالث



www.st-mgalx.com

البيان سنووه الثالث

شخصيات الكتاب المقدس

① آدَمُ وَحَوَّاءُ
② قَائِيْن وَهَابِيل



شخصيات الكتاب المقدس

١ آدم وحواء ٢ قايين وهابيل

1 – Adam & Eve

2 – Cain & Abel

البابا شنودة الثالث

H.H. Pope Shenouda III

Second Reprint

September 1982

الطبعة الثانية

سبتمبر ١٩٨٢



قداسة البابا المعظم الانبا شنودة الثالث
بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرفسية
الـ " ١١٧ "

مقدمة

ليست هذه دراسات في العهد القديم ، ولا هي مقدمات لأسفاره ، إنما هي تأملات روحية ، تقدم منهاجاً تأملياً في الكتاب .

وقصتها قديمة معي ...

إذ كنت قد قمت بتدريس العهد القديم في الكلية الإكليريكية ، عقب تخرجي فيها ، من أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، أي أكثر من ثلاثين عاماً ... كما قمت بتدريس العهد الجديد من سنة ١٩٥٢ .

وكنيت أرى الكتاب - كما قدمه الرب لنا - روحاً وحياة ...
وهذا ما أريد أن أقدمه لك ، أيها القارئ العزيز .

تماماً ، كما قدمته في محاضرات يوم الثلاثاء بالكاتدرائية الكبرى ، خلال ثلاث سنوات من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢ م .
وأود من أجلك ، أن أتابع نشر هذه المجموعة ، التي أحب أن تحتفظ بها معك ، كاملة ...

وثق أنك سترى حياتك الخاصة ، من خلال شخصيات الكتاب ... فالنفسية البشرية هي هي ، منذ آدم ، وحواء إلى يومنا هذا ...

ولقد صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة عن « آدم وحواء » ، و « قايين وهابيل » في ٢٤ فبراير ١٩٨٠ ونفذت فور صدورها . وها نحن نعيد طبعها ، ليحتفظ بها من فاتته إقتناؤها قبلاً ...

وسأحاول أن أتابع معك شخصيات العهد القديم ، حتى يوحنا المعمدان ... كما نتناول شخصيات العهد الجديد أيضاً ، إن أحب الرب وعشنا .

وأحتاج إلى صلواتك ، لكيما يعطيني الرب نعمة لإكمال هذا العمل

شنوده الثالث

سبتمبر ١٩٨٢

شخصيات الكتاب

« قدم لنا الكتاب المقدس ألواناً متنوعة من «أناس الله القديسين» :

إنها صور متعددة من قديسين ، كل منهم له طابعه الخاص ، يختلفون في العمر والجنس والوظيفة والحياة الإجتماعية والأسلوب الروحي .

وذلك لكي نتعلم أن القداسة ملك للجميع ، وليست وقفاً على فئة معينة من الناس دون غيرها ...

فلم يقدم لنا الكتاب حياة القداسة أو حياة الكمال ، قاصرة على الأنبياء والرسل مثلاً ، أو على الكهنة ورؤساء الكهنة ، أو على صانعي العجايب والمعجزات ، إنما هي للجميع ، وهي بإمكان كل أحد ...

« قدم لنا الكتاب المقدس قديسين في مراحل متفاوتة من العمر :

منهم الأطفال مثل صموئيل ، ومنهم الصبيان مثل داود وأرميا . ومنهم الشباب مثل يوسف الصديق ، ويوناثان ، ومارمرقس ويوحنا الحبيب . ومنهم الرجال الناضجون مثل موسى وبطرس ، ومنهم الشيوخ مثل نوح وأخنوخ وإبراهيم ... وسمعان الشيخ ...

« قدم لنا رجالاً ككل هؤلاء . كما قدم لنا نسوة قديسات ... مثل مريم العذراء ، وحنة النبية ، وسارة ، وراعوث ، وإستير ، واليصابات ، ومريم أخت لعازر ... وغيرهن كثيرات ...

« وكما قدم لنا قديسين متفاوتين في العمر ، قدم لنا أيضاً قديسين متفاوتين في المركز الإجتماعي ، وفي الغنى والفقر : فالمسألة أولاً وأخيراً مسألة قلب مستعد لعمل النعمة فيه ، أيّاً كان مركزه أو وضعه المالى أو وظيفته في المجتمع .

وهكذا قدم لنا الكتاب قديسين أغنياء جداً مثل أيوب الصديق ، وأبينا إبراهيم ، ويوسف الرامى . كما قدم لنا فقراء مثل الأرملة التى دفعت من أعوازاها فلسين في الصندوق ، ومثل أرملة صيدا التى إستضافت إيليا النبى ، ومثل لعازر المسكين الذى كان يستعطى ، وكانت الكلاب تلحس قروحه ...

قدم لنا الكتاب رعاة غنم مثل داود وإسحق ويعقوب ، وصيادي سمك مثل بطرس وإندراوس ، وعشارين مثل متى وزكا ، وملوكاً مثل داود ويوشيا ، ووزراء مثل دانيال ويوسف ، وأسرى حرب مثل الثلاثة فتية ، وأبطالاً مثل شمشون ، وقضاة مثل جدعون ، وطبيباً مثل لوقا ، وكاتباً مثل عزرا ، وخادماً مثل لعازر الدمشقي ...

* وقدم لنا الكتاب أيضاً قديسين متفاوتين في ثقافتهم وعلمهم :

فبينما نرى موسى الذى « تهذب بكل حكمة المصريين » ، وبولس الذى كان من علماء عصره ، وسليمان الذى كان أحكم أهل الأرض في زمانه ، نرى أيضاً جهال العالم الذين إختارهم الله ليخزي بهم الحكماء ...

* كذلك قدم لنا الكتاب أمثلة متفاوتة في البتولية والزواج والترمل ، وكلها كانت تحيا حياة مقدسة طاهرة أحبا الرب ...

قدم لنا بتولين قديسين مثل إيليا واليشع ويوحنا المعمدان ويوحنا الحبيب ، ومتزوجين قديسين مثل نوح البار، وبطرس الرسول ، وأخنوخ أبى الآباء الذى رفعه الله إليه ... كما قدم لنا من عاشوا حياة مقدسة في الترمل مثل حنة النبية ، ومن تزوجوا بعد ترملهم مثل راعوث ، ومن تزوجوا بأكثر من واحدة مثل إبراهيم وموسى وداود ... وعلى جبل التجلى ، ظهر السيد المسيح ، محاطاً بإيليا البتول ، وبموسى المتزوج ، والكل يحيط بهم نور عجيب .

وحول الصليب ، كانت مريم العذراء ويوحنا البتول ، ومريم زوجة كلوبا التى أنجبت عدداً كبيراً من البنين والبنات ...

* قدم لنا الكتاب من عاشوا حياة مقدسة منذ البدء ، ومن جاءوا إلى الرب أخيراً ، ورحمهم الله وقبلهم إليه :

قدم لنا قديسين من بطون أمهاتهم ، مثل يوحنا المعمدان الذى من أمه إمتلأ من الروح القدس . كما قدم لنا قديسين وقديسات عاشوا في عمق الخطية قبل لقائهم بالرب ، مثل اللص اليمين ، والمرأة التى بللت قدمى الرب بدموعها ، ومثل راحاب الزانية ، وقدم لنا الكتاب أشخاصاً عاشوا من قبل بعيدين عن الله ، مثل مريم المجدلية التى أخرج منها الرب سبعة شياطين ، والمرأة الكنعانية التى كانت من شعب ملعون أُمى ...

وقدم لنا قديسين من مضطهدى الكنيسة ، مثل شاول الطرسوسى ، ومثل الجندى

الذى طعن المسيح بالحربة .

*** قدم لنا الكتاب المقدس شخصيات تحمل ألوانا من الروحيات ، متنوعة ، ومتغايرة ولكننا نراها كلها متكاملة :**

قدم لنا إيليا الشديد الناري ، الذى أغلق السماء ثلاث سنين وستة أشهر فلم تمطر ، والذى قتل المئات من أنبياء البعل وأنبياء السوارى ، وإنتهر آخاب الملك ، وقال لتنزل نار من السماء وتأكل الخمسين فنزلت وأكلتهم . كما قدم لنا الكتاب أرمياء النبي الباكي الذى سكب دموعه ومراثيه .

وأرانا الكتاب كيف أن الله عمل فى الشخصية النارية ، كما عمل فى الشخصية الباكية . وإستخدم الإثنين فى بناء ملكوته . فليس المهم هونوعية الشخص ، إنما تسليمه لإرادته فى يد المشيئة الإلهية .

فى الكتاب نرى شخصية بطرس الرسول المملوءة غيرة وتسرعاً وإندفاعاً ، مع شخصية توما المملوءة حرصاً وشكاً وترثاً وحباً للفحص وبعداً عن الإندفاع . وكلاهما فى يد الرب ، يعمل بهما . ونرى فى الكتاب كيف إستخدم الله أناساً كما هم ، بينما غير البعض فحول يوحنا ابن الرعد ، تلميذ المعمدان إلى قلب كله حب ...

*** وكل فضيلة تعجبنا ، نرى شخصيات فى الكتاب تمثلها :**

نرى أيوب يمثل الصبر ، وسمعان الشيخ يمثل الرجاء والانتظار . نرى داود يمثل التوبة والإنسحاق ، وإبراهيم يمثل الطاعة والإيمان . نرى يعقوب الهادىء المحتمل ، ويوحنا المعمدان المشهور بالشجاعة والمواجهة ، وبولس المملوء نشاطاً وغيرة وحركة وتعليماً كما نرى العذراء المشهورة بالصمت والتأمل ...

إنها باقة من الفضائل متنوعة الأزهار والألوان والعطور :

يقدمها الكتاب المقدس ، فى أشخاص أتقنوها عملياً ، وتركوها لنا كقدوة ومثال . بحيث أننا إن أردنا صفة ما ، أو فضيلة ما ، سنجد حتماً الشخص الذى يعطى لها صورة مثالية . وهكذا يكون الكتاب جامعاً لكل ما نريد .

*** لذلك لا يئأس أحد مفكراً أن حالته لا تناسب دعوة الله :**

فالله مستعد أن يدعوك كما أنت ، أياً كانت حالتك ، أو ثقافتك ، أو سنك ، أو

مركزك ، أو وضعك الإجتماعى ... إنه « الداعى الكل إلى الخلاص » ... ولعلك تجد مثيلاً لك فى الكتاب المقدس ، قد عمل الله فيه وبه ...

لا تقل إذن « لست أصلح » . فليس المهم هو صلاحيتك ، إنما المهم هو عمل الله معك . والله قادر أن يعمل مع الكل . قل له إذن « مستعد قلبى يا الله ، مستعد قلبى » (مز ٥٦) .

*** ومن الأمور المعزية أيضاً فى الكتاب أنه قدم لنا مثاليات مثلنا ، لقديسين كانت لهم ضعفاتهم ونقائصهم وسقطاتهم :**

ولكن روح الله قد عمل فيهم ، وأوصلهم إلى درجات عليا فى القداسة ، على الرغم من هذه الطبيعة التى يمكن أن تضعف أحياناً ، وتسقط ... وما أعمق وأصدق قول الكتاب : « إيليا ، كان إنساناً ، تحت الآلام مثلنا ... » (يع ٥ : ١٧ ، ١٨) .

ومع أنه كان تحت الآلام مثلنا ، إلا أنه « صلى صلاة » . وإستطاع أن يفلق السماء ، وأن يفتحها .

قدم لنا الكتاب إبراهيم الذى خاف أن يقتلوه ، فقال عن زوجته سارة إنها أخته . ويعقوب الذى خدع أباه ، وسرق بركة أخيه . وشمشون الذى أغرته دليلة ، فكسر نذره . ونوحاً الذى سكر وتعرى ، وداود الذى زنى وقتل ، وتوما الذى شك ، وبطرس الذى أنكر ...

لم يقدم لنا الكتاب قديسين معصومين ، أو بشرأ من نوع الملائكة ، إنما قدم بشرأ مثلنا ، واقعاً لا خيالاً ... قدم النفس البشرية التى نعرفها ، التى إختبرناها ، « الأوانى الخزافية » السهلة الكسر ، التى عمل فيها الخراف العظيم ، وصنع منها أوانى للكرامة ، وجعلها رائحة بخور ذكية ، أمام الملائكة والبشر ... وكان « فضل القوة لله وليس لنا » (٢ كو ٤ : ٧) . أما عن الحروب الروحية التى تعرض لها هؤلاء ، فيعزينا الكتاب بقوله : « الحرب للرب . والرب قادر أن يغلب بالكثير وبالقليل » .

قدم لنا الكتاب المقدس عينات من قديسين ، من نفس نوعنا ، يمكن أن تضعف ، ويمكن أن تسقط ، ويمكن أن تخطئ وأن تزل ...

*** ولكنه قدم لنا فى هؤلاء القديسين الذين أخطأوا ، صوراً رائعة من التوبة . نصف الحقيقة أنهم أخطأوا ، والنصف الآخر ، الأروع ، أنهم تابوا ...**

إن الكتاب المقدس صريح وواقعي . إنه يقدم لنا قديسين من نفس طبيعتنا ، التي يمكن أن تخاف ، وأن تشتهي ، وأن تفتر ، وأن تهرب ، وتختبئ من الله ... حتى السبعة ملائكة الذين للسمع كنائس في آسيا ، نراهم من نفس الطبيعة البشرية العادية : لذلك حينما ندرس هؤلاء الرعاة ، الذين وصفهم الكتاب بأنهم ملائكة ، لا ننسى أن واحداً منهم كان فاتراً ، لا هو حار ، ولا هو بارد ، وكان الله مزمناً أن يتقيأه (رؤى ٣ : ١٦) . ونرى واحداً آخر منهم ، على الرغم من تعبه وكده لأجل الله ، عاد وترك محبته الأولى ، وأرسل له الله قائلاً « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤى ٢ : ٥) . ونرى ملاكاً ثالثاً من ملائكة هذه الكنائس السبع ، يقول له الرب « إن لك إسماً إنك حي وأنت ميت » (رؤى ٣ : ١) .

إنها نفس الطبيعة البشرية التي لباقي الناس ... والكتاب المقدس لا يكلمكم من وحى الخيال ، ولا يصور لكم قديسين لهم أجنحة من نور و نار ، و يطيرون في السماء ، و يسبحون في أجواء القداسة العليا ...

ولكن بعمل الله القوى الذي عمل فيهم ، بنعمته التي دخلت إلى قلوبهم ، بروحه القدوس الذي أرشدهم وقواهم وأشرك في العمل معهم ... بهذا قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه ... وتغيروا ...

بطرس الذي خاف ذات مرة أمام جارية وأنكر المسيح ، تحول إلى القديس بطرس الجبار العنيف ، الذي وقف أمام ولاية وملوك ، وقال للشيخ ولرؤساء الكهنة « ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس » (أع ٥ : ٢١) ... جاهر بالإيمان ، وتعب لأجله ، وصار شعلة من نار ، وصلب ، ومات شهيداً ...

ما هذا يا أبى القديس بطرس ؟ مجيب : لقد كنت ضعيفاً مثلك ، وخائفاً مثلك . لكن الله عمل في ضعفي ، وروحه قواني وشددني ، فشهدت له أمام الكل ... إذن ، حينما نجد القديس بطرس الرسول قد ملأ الدنيا تبشيراً ، لا نقول إنه من طبيعة أخرى سامية غير طبيعتنا ... كلا ، إنه مثلنا . ولكنه فتح قلبه لعمل الله ، وسلم مشيئته لمشيئة القدوس ...

وإن رأينا إنساناً مثل القديس بولس الرسول ، قد تعب أكثر من جميع الرسل ، وكرز في كل أرجاء الأرض ، فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... وإنما هو نفسه يعترف ويقول : « أنا الذي كنت من قبل مجدفاً ومضطهداً للكنيسة ، ولكنني رحمت لأنني فعلت ذلك بجهل » (١ ق ١٣ : ١) ...

وإن عرفنا جباراً من جبابرة الروح والرعاية مثل القديس موسى النبي ، الذي أجرى الله على يديه معجزات في أرض مصر ، وشق البحر بعصاه ، وضرب الصخرة فجراً منها الماء ، وأنزل من السماء المن والسلوى ... فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... بل أنه عاش في مبدأ حياته كأمر في قصر فرعون ، بكل ما تحمل الإمارة من رفاهية وتنعم وكبرياء ، معتداً بنفسه ، يضرب المصري فيقتله . ولكن الله أمسك به ، وعلمه طريقه . أمسكه « ابن النجار » ، بالعارة والمنشار ، وأزال نتوءاته ، وصنفره ، وعمل فيه ، حتى صار قديساً عظيماً لا نستحق التراب الذي يدوسه بقدميه ... « وصار الرجل موسى حليماً جداً ، أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » (عدد ١٢ : ٣) .

هذه عينات من الناس ، أخذها الله كما هي ، وعمل فيها ، وعمل معها ، وصارت له ، وأخذت من بهائه ، ومن قوته ...

وبالنسبة إليك ، لا تشابه القديسين في ضعفاتهم ، وإنما في طهرهم .

لا تتهاون معتذراً بأن القديسين أنفسهم قد أخطأوا ، إنما أنظر إلى توبتهم وأعماقها العجيبة ، والتصاقهم الطبيعي بالله .

* وحينما نقول إنهم أخطأوا ، فلا نعي أن حياتهم كلها كانت خطية . بل السقطات كانت الوضع العابر الطارئ في حياتهم . أما القداسة فكانت الوضع الطبيعي الدائم .

إذا عرفنا أن داود في وقت ما ، قد زنى وقتل . فليس معنى هذا أن حياته كلها كانت زنى وقتلاً . وليس معنى هذا أن يتطاول بعض الوعاظ على هذا القديس العظيم ، ولا يتحدثون إلا عن خطيئته بدون من الإستصغار !! وينسون أنه رجل الصلاة والتسبيح والمزامير ، رجل المزممار والقيثار ولعشرة الأوتار ، رجل الإيمان والوداعة ، الذي قال عنه الرب بنفسه « فحصت قلب داود ، فوجدته حسب قلبي » .

إن الشر لم يكن طبيعة في هذا البار ، الذي حل عليه روح الرب ، والذي هزم جديات ، وإحتمل شاول ، وغفر لشمعي بن جيرا ، وسبح للرب تسابيح جديدة ... إنما هي صفات طارئة ، سمح بها الرب ليعطي قديسه نسحاقاً ودموعاً ، و يصيره درساً في التوبة ، كما كان درساً في الصلاة ، وفي الوداعة ، وفي الشجاعة .

و بنفس الوضع حينما نذكر خوف أبينا إبراهيم ، وقوله عن امرأته سارة إنها أخته ... لا ننسى أبدأ إيمان الرجل ، ونسكه ، وشجاعته ، وكرمه ، وطاعته للرب حتى رفع السكين

ليقدم وحيد المحبوب محرقة ... ولا ننسى وتركه لأهله وعشره وسعيه وراء ...

*** كذلك في حديثنا عن قديسي الكتاب ، ليس المهم نقطة البدء في حياتهم ،
فربما بدأ البعض منهم كأشخاص عاديين . إنما المهم هو ما إنتهوا إليه ...**

لقد كانت حياة هؤلاء القديسين ، مجرد محال عمل فيه الله . ونحن نهتم بهذه النقطة
بالذات في حياة قديسي الكتاب ... يهتما جداً دور الله في حياتهم . كيف عامهم الرب ؟
وكيف عامل غيرهم من الناس الذين يتصلوا بهم ؟ كيف كانت معاملة الله لقديسيه ،
وكيف كانت معاملته للأشرار ؟ ومعامته للساقطين والتائبين ولنفائين ...

إن الكتاب هو سجل جميل لمعاملة الله مع الناس ...
ومن واقع هذه المعاملة بأخذ فكرة عن صفات الله لجميعة ، وعن حبه وطول أناته ،
وحكمته وصلاحه ، وقوته وقدرته ... ونأخذ من كل هذا درساً لأنفسنا ومحالاً لتأملاتنا .

*** وفي سير قديسي الكتاب ، لا نريد أن ندرس تاريخاً ، إنما أن نمتص حياة ...**

فالكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتاب تاريخ ، إنما هو كتاب إيمان ، وكتاب
حياة . وهذا هو الفرق بين دراستنا للكتاب ، ودراستنا لكتب التاريخ . التاريخ يذكر
أحداثاً ، ولكننا هنا لا نفحص الأحداث ، بقدر ما نفحص حالة القلب .

إننا من خلال الأحداث ، ندرس النفس البشرية ، في كل مشاعرها
وأحاسيسها وتصرفاتها . ندخل إلى أعماق النفس ، وندرس حروبها الروحية ،
وندرس علاقاتها مع الله ومع الناس ومع ذاتها . ومن كل ذلك نتعلم ...
والكتاب المقدس صريح جداً في كشف النفس البشرية .

ونحن نريد أن نشاغل هذه النفوس ، لكي نخلها ، ونفهمها ، ونرى فيها صورتنا نحن ،
وما ينبغي أن نفعل . وفيما ندرس هذه الشخصيات ، ندرسها لكي نحيا نحن ...

نحيا من خلال حياة هؤلاء ، ونستفيد من تحارهم ، ومن خبراتهم ، ونستفيد من
سقوطهم أيضاً ومن قيامهم . وإن تعرضنا لأخطائهم ، فنحن لا ندينهم عليها . بهم آباؤنا
ومعمونا ، بل هم أيضاً مثلنا العليا . وهم أحباء الله الذين نرجو شفاعتهم وبركتهم ...

والأخطاء التي نكشفها ، إنما تكشف لنا ضعف طبيعتنا ، وليس ضعفاً لأولئك
القديسين الذين لا نستحق أن نقبل التراب الذي داسوه بأقدامهم الطاهرة ...

بركة هؤلاء جميعاً ، فلتكن معنا ، آمين ...

- ١ -

آدم وحواء

أولاً : بهما وهما الأول

ثانياً : ٢٧ خطية وقعها فيها

ثالثاً ، نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

آدم وحواء

يجسن بنا أن نبدأ تأملاتنا في شخصيات الكتاب بابوينا الأولين ، آدم وحواء ، ونرى كيف خُلقا وكيف كانا ، وميزات طبيعتها الأولى في عمق بهائها ومجدها . وكيف قادهما الضعف البشري ، وتطور بها من سقطة إلى أخرى ، حتى كثرت خطاياهما جداً ، وفسدت طبيعتها البشرية .

بهاؤهما الأول

١ - كانا مخلوقين ، غير مولودين ، لم يرثا فساداً من طبيعة سابقة :

آدم وحواء ، لم يولدا من دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل ... لم يأتيا من زرع بشر ، ولم يرثا طبعاً فاسداً من طبيعة سابقة عبيها ، إنما خلقها الله ، شيئاً جديداً لم يتلوث من قبل ، وبالطريقة التي أرادها الرب لها .

٢ - خلقها الله على صورته ومثاله . ولا يمكن أن يوجد أعظم من هذا ، أن يكون آدم وحواء على شبه الله ...

وفي ذلك يسجل سفر التكوين « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

وما أكثر تأملات الآباء القديسين وتفسيراتهم ، الخاصة بخلق أبوينا الأولين على صورة الله ...

✱ قيل إن الله خلقها على صورته في البر والقداسة ، في وضع فائق للطبيعة ... وهكذا كان كلاهما باراً بلا خطية ، حينما خلقها الله متسرلين بالقداسة ...

✱ وقيل على صورته في الجمال والبهاء والمجد ، أي أعطاهما قبساً من بهائه ، فكانا في منتهى الجمال ، جسداً ونفساً وروحاً ...

✱ وقيل إن الله خلق الإنسان على صورته في الخلود ، إذ وهب لها نفساً خالدة ، نفخها في أنف آدم ، نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية (تك ٢ : ٧) .

* وقيل إن الله خلقهما على صورته في حرية الإرادة .

* وقيل أيضاً إن الإنسان خلق على صورة الله في التثليث والتوحيد : ذاتاً ، لها عقل ناطق ، ولها روح . والذات والعقل والروح كائن واحد : كالذات الإلهية ، لها عقل ، ولها روح ، والثلاثة كائن واحد ... إنما الله غير محدود في كل شيء ، ولإنسان محدود ...

* وقيل إن الله خلقهما على صورته في الملك والسلطة . فكانا ملكين على الأرض ، لها سلطة على كائناتها (تك ١ : ٢٨) . وكان آدم نائباً لله على الأرض ، وممثلاً لخليقة الأرضية كلها ...

* وقيل إن الله كان يعرف مسبقاً بسقوط الإنسان ، وبأنه سيخلى ذاته و يتجسد لكي يخلصه . فخلق هذا الإنسان على الصورة التي كان الله مزمعاً أن يتجسد بها ، على شبهه ومثاله ...

٣ - وكان آدم وحواء يتصفان بالبساطة والبراءة :

ما كانا يعرفان الشر إطلاقاً . كانا يعرفان الخير فقط ، ولا شيء سوى الخير . لذلك لم يفكرا وقت التجربة أن الحية يمكن أن تخدع وأن تكذب . فعبارات الكذب والخداع لم تكن موجودة في قاموسهما في ذلك الحين .

وفي بساطتهما وبراءتهما ، ما كانا يعرفان بعضها من الناحية الجنسية ، بل كطفلين ساذجين . ما كانا يفهمان الفروق العضوية في تركيب جسديهما . وكما ذكر سفر التكوين « وكانا كلاهما عريانين ، آدم وإمرأته ، وهما لا يخجلان » (تك ٢ : ٢٥) .

٤ - وقد باركها الله معاً ، بنفس البركة ، وأعطاهما سلطاناً على الأرض كلها بجميع كائناتها ، نفس السلطة لكليهما ...

وفي ذلك يذكر سفر التكوين « وقال الله لعمل الإنسان كصورتنا ، فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى لبهاثم ، وعلى كل الأرض ، وعلى الدبابات التي تدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) .

وهكذا عاش الإنسان ، ولها هيبة وسلطة ، على الأرض ومخلوقاتا . ما كانا يخافان الوحوش أو دبيب الأرض ، بل عاشا وسط الأسود والتمور والفهود والحيات والثعابين وما أشبه ، في حياة من الألفة والسلام ، لها سلطان على كل هؤلاء . ترى الوحوش فيها صورة الله ، فتعاملها بالمهابة اللاتقة بها .

وآدم هو الذى سُمى كل الحيوانات وكل ذوات الأنفس بأسمائها « وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية ، فهو إسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية » (تك ٢ : ١٩ ، ٢٠) .

٥ - وكان آدم وحواء إجتماعيين ، يتعاونان معاً ...

حينما كان آدم وحده فى الجنة ، وجد التعاون والألفة بين جميع حيوانات الأرض « وأما لنفسه ، فلم يجد معيناً نظيره » (تك ٢ : ٢١) . وصعد هذا الإشتياق ، أو هذا الإحتياج إلى الله « فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام . فاخذوا واحدة من أضلعه ، وملاً مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة ، وأحضرها إلى آدم » (تك ٢ : ٢١ ، ٢٢) .

وشعر آدم بهذه الرابطة القوية التى تربطه بحواء ، وإنها جزء منه ، بينها رابطة دم ولحم وعظم . « فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامى ، ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرء أُخذت » (تك ٢ : ٢٣) .

٦ - ونحن نعجب من هذه المعرفة التى كان لآدم :

* كيف عرف أن حواء ، قد أخذت من لحمه ومن عظامه ، بينما كان فى سبات ... ؟ !
هل أخبره الله بما حدث ، فى ظل علاقة المحبة بينه وبين الله ؟ أم كان هذا اللون من المعرفة ، من ضمن مواهبه فى ذلك الوقت ، الذى خلق فيه بوضع فائق للطبيعة ... ؟ !
* كما أننا نعجب بآدم إذ أنه أعطى حواء إسماً له دلالة وله عمق ، فسمّاها امرأة ، لأنها من امرء أُخذت .

وفى بعد ... بعد الخطية ، حينما ولدت إمرأته إبناً ، أعطّاها إسماً آخر : « ودعا آدم إسم إمرأته حواء ، لأنها أم كل حى » (تك ٣ : ٢٠) . إنها حكمة إتصف بها آدم فى إطلاق الأسماء . ولعله إستخدم هذه الحكمة ذاتها فى تسمية الحيوانات والطيور وكل ذوات الأنفس الحية .

ليست أحد المتخصصين فى علوم اللغات ، يبحث مع بعض المتخصصين فى علوم الحيوان ، السر الذى يكمن وراء أسماء الحيوانات ، والحكمة التى بها أطلق آدم كل إسم على صاحبة ...

* كان آدم أيضاً يعمل فى الجنة ويحفظها (تك ٣ : ١٥) . فمن أين أوتى آدم هذه .

المعرفة بشئون كل النباتات الموجودة في الجنة ، أترأه أيضاً لون من الكشف الإلهي ، أو كانت معرفة آدم من نوع فائق لمعرفتنا ؟

٧ - وقد خلق آدم وحواء بعد أن أعد الله لها كل شيء .

خلقها في اليوم السادس ، كقمة لمخلوقاته كلها . وخلقها بعد أن خلق من أجلها كل شيء ، كما في القديس الغريغوري . من أجلها أعد السماء لها سقفاً ، ومهد لها الأرض كي يمشي عليها . رتب لها قوانين الفلك ، ووضع لها الشمس لضيء النهار ، والقمر لإضاءة الليل . ونظم لها الطبيعة واجواءها ، وخلق لها النبات لطعامها ، والحيوانات لخدمتها . وأخيراً خلقها ، لينمتعا بهذه الطبيعة كلها .

وعندما تنتهي فترة إقامة البشرية على الأرض ، ويأتي الرب على السحاب ، ليأخذ باقي البشر ، ويسكن الإنسان في الأبدية ، حينئذ ستزول هذه الأرض وهذه السماء اللتان خلقها الله ، لراحة الإنسان ههنا . إذ سيزول غرضها بانتقال الإنسان إلى جوار الله في أورشليم السماوية .

ما أعظم قيمة هذا الإنسان ، الذي من أجله خلق الله كل شيء . آدم صورة الله ، أعظم كائن على الأرض في أيامه ، نائب الله ، المسلط منه على كل الخليقة الأرضية ...

٨ - وكان آدم وحواء سعيدين ، يعيشان في جنة :

خلق الله جنة جميلة ، لكي يحيا فيها هذا الإنسان سعيداً « غرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذي جبله » (تك ٢ : ٨) . وشرح سفر التكوين بعض تفاصيل هذه الجنة ، فيقول « وأنت لرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر . وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة » (تك ٢ : ٩ ، ١٠) .

كان آدم سعيداً هو وحواء داخل الجنة . لم يكن هناك ما ينقصهما ، ولم يكن هناك ما يعكر صفوهما . كان كل شيء حولهما جميلاً ، وعاشا في اليوم السابع ، اليوم الذي قدسه الرب ، واتخذته للراحة ، له ولهما .

وهذه الطبيعة الجميلة الهادئة النقية التي خلقها الله لآدم وحواء ، يقول عنها الكتاب « ورأى الله كل ما عمله ، فإذا هو حسن جداً » (تك ١ : ٣١) .

٩ - وعاش آدم أيضاً في عشرة الله ...

لم تكن سعادة هذا الإنسان الأول ، من مجرد خلقة في طبيعة ممتازة ، أو من سلطته على هذه الطبيعة ، أو من حياته في جنة جميلة ، إنما لعل السبب الأول في سعادته ، أنه كان يحيا في عشرة الله ... الله كان يظهر له ، وكان يكلمه ، وكان يباركه ، وكان يعلمه بنفسه و يقدم له الوصايا النافعة له .

كانت له علاقة مباشرة مع الله ، يشرحها سفر التكوين « نفخ في أنفه نسمة حياة » « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن » وأحضر « الحيوانات » إلى آدم ليرى ماذا يدعوها « وباركهم الله وقال لهم : « أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض » « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها » .

١٠ - وقد عاش آدم وحواء في الجنة نباتيين ...

* إن أكل اللحوم لم يسمح به الله إلا في أيام نوح ، بعد خروجه وأسرته من الفلك ، إذ يذكر سفر التكوين إن الله بارك نوحاً وبنه بنفس بركة آدم وحواء ، ثانياً ، وقال لهم « كل دابة حية تكون لكم طعاماً . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع ، غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه » (تك ٩ : ٣ ، ٤) .

أما ما قبل فلك نوح ، فلم يكن مصرحاً بغير النبات ... وهذا ما يذكره سفر التكوين :

* لما خلق الله آدم وحواء ، سمح لهما بأكل الفاكهة والبقول ، أى ثمار الأشجار ، وذلك بقوله « إني قد أعطيتكم كل بقل يبذر بذراً على وجه كل الأرض ، وكل شجرة فيه ثمر شجرة يبذر بذراً ، لكم يكون طعاماً » . « ولكل حيوان الأرض ، وكل طير السماء وكل دابة على الأرض فيها نفس حية ، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً ، وكان كذلك » . (تك ١ : ٢٩ ، ٣٠) .

* إذن لم يكن الإنسان وحده نباتياً في الجنة ، وإنما حتى الحيوانات أيضاً بكل أنواعها كانت نباتية : للإنسان الثمار والبقول ، وللحيوان العشب الأخضر . لم يكن هناك فتراس . لا الإنسان يأكل الحيوان ، ولا الحيوان يأكل الإنسان ، ولا الحيوان يأكل بعضه بعضاً .

✽ وبعد السقوط في الخطية : لما حدث أن الإنسان ، كالحَيوان إشتهى أن يأكل ، أعطاه الله الطعام المخصص للحيوان ، عشب الأرض . فقال الرب للإنسان بعد السقوط « وتأكل عشب الأرض » (تك ٣ : ١٨) ، وكان لعشب مخصصاً للحيوان من قبل (تك ١ : ٣٠) .

بقى الإنسان بعد السقوط نباتياً ، يأكل ثمار الشجر والبقول والعشب ، بعد طرده من الجنة ، دون أن يأكل اللحوم ، التي لم يصرح له بعدها ، إلا بعد فلك نوح (تك ٩ : ٣) .

✽ ومع ذلك كانت الأعمار طويلة جداً ، في تلك الفترة من آدم حتى نوح ، كما يشرح الأصحاح الخامس من سفر التكوين :

عاش آدم ٩٣٠ سنة (تك ٥ : ٥) ، وعاش نوح ٩٥٠ سنة (تك ٩ : ٢٩) . وعاش متوشالحو ٩٦٩ سنة (تك ٥ : ٢٧) ، وهو صاحب أطول عمر في كل أجيال البشرية ، وكان نباتياً .

✽ لماذا إذن صرح الله بأكل اللحوم بعد فلك نوح ؟

يقول الكتاب « قبل الطوفان مباشرة » « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثُر في الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض » (تك ٦ : ٥) . وهكذا أغرق الرب العالم بالطوفان . وأبقى الرب بنية من البشرية . وسمح لها بأكل اللحوم ، لأن مستوى البشر لم يكن يحتمل غير هذا ...



خطايا عديدة لأبونا الأولين

كانت طبيعتها سامية جداً ، ولكنها كانا يتمتعان في نفس الوقت بحرية الإرادة ، وبالحرية توجد إمكانية السقوط .

والعجيب أن كثيراً من الكتاب يتحدثون عن خطية آدم أو حواء ، كما لو كانت خطية واحدة لا غير!! بينما وقع أبوانا في عديد من الخطايا ، نذكر منها هنا ٢٧ خطية ، بنوع من التحليل ، لكي نتعلم نحن أيضاً التدقيق في محاسبتنا لأنفسنا... فما هي هذه الخطايا ؟

١ - العصيان أو المخالفة

وهذه هي الخطية الواضحة للكل . إن الله أمر أبانا آدم قائلاً : « من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٦ ، ١٧) . الوصية واضحة ، وقد سمعها آدم بنفسه من فم الله . وكانت تحفظها حواء (تك ٣ : ٢) . ومع ذلك خالفها آدم وحالفتها حواء .

لولم ينذر الله آدم وحواء من قبل ، لقلنا إنها كانت خطية جهل . ولكن من الواضح أنها خطية معرفة .

٢ - المعاشرات الرديئة

بدأت سلسلة الخطايا التي وقع فيها آدم وحواء بخطية « المعاشرات الرديئة التي تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) . فنجست أما حواء مع الحية « وكانت الحية أحيى جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله » (تك ٣ : ١) .

وحق إن كانت أمنا حواء ، بنقاوة قلبها وبساطتها ، لا تدرك ما في الحية من خبيث ، فإنه كان يجب عليها أن تتنبه ، حينما أخذت الحية تكشف أوراقها ، ونقول كلاماً عكس ما قاله الله نفسه لها !!

ولكن أمنا القديسة بدلاً من أن تتنبه ، وقعت في خطية الإنقياد ، ووقعت أيضاً في خطية الشك . وقادت هاتان الخطيتان إلى سقطات أخرى كثيرة .

٣ - خطية الشك

قالت الحية في خبيث وهي تبذر بذور الشك « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ » ... أحقاً أن الله الرحيم الطيب يمنعكما عن الأكل من كل الشجر؟ وماذا يضيره لو جعلكما تأكلان؟ أى شرفى هذا؟!

فلما أجابت المرأة حسناً ، أخذت الحية تتعمق في إلقاء بذور الشك ، فقالت « كلا ، لن تموتا ، بل الله عالم إنكما يوم تأكلان تتفتح أعينكما ، وتكونان مثل الله عارفين الخير والشر » ... إذن الله خائف من أن تصيرا مثله ، لذلك يمنعكما ... ليس حباً منه لكما ، أو حرصاً عليكما ، إنما خشية من المنافسة ...

هذا هو الشك الذى ألقته الحية في نفس حواء :
الشك في صدق كلام الله ، والشك في حب الله للبشر ، بل الشك أيضاً في إقدار الله لها بالموت . فهما - حسب كلام الحية - لن يموتا ، بل ستتحسن أحوالهما ... واستسلمت حواء إلى هذا الشك ، فسلمها إلى خطيئة أخرى :

٤ - خطية الانقياد

إنقادت - وهى صورة الله ومثاله - إلى الحية ومشورتها . فبدلاً من أن تنتهر الحية على التشكيك في كلام الله ، أطاعتها ، وهذا فقدت شخصيتها أمام الحية ، بينما كان الله قد أعطاها سلطاناً على جميع حيوانات الأرض وعلى ما يدب على الأرض ، فكانت الحية بذلك تحت سلطانها ، وكانت تملك أن تخضعها ، حسب قول الرب عن هذه الكائنات « وأخضعوها » (تك ١ : ٢٨) . فبدلاً من إخضاعها . خضعت لها .

ونفس هذا الانقياد الخاطيء ، الذى وقعت فيها حواء ، حدث بالنسبة إلى أبينا آدم من جهة إمرأته حواء ، بينما الرجل رأس المرأة . وكان يجب على آدم أن يقود حواء إلى الخير ، ويرفض أن يأكل الثمرة المحرمة من يدها ، ولكنه إنقاد هو أيضاً وأطاع . ووقع في نفس ضعف الشخصية الذى وقعت فيه حواء .

لذلك فإن الله لم يقبل من حواء عبارة « الحية أغرتنى » . ولم يقبل من آدم عبارة « المرأة أعطتني » .

كان يجب على كل منها أن يكون قوى الشخصية ، ولا يقبل من غيره أية نصيحة أو أى توجيه ضد وصية الله الواضحة .
وكان إنقياد حواء للحية ، يجعل داخله خطية أخرى هى :

٥- ضعف الايمان

إنقياد حواء للحية ، معناه انها قبلت كلامها أكثر من كلام الله ، أو قل إنها صدقت الحية وكذبت الله . الله يقول عن ثمر الشجرة « لا تأكلا منه ولا تمساه ، لئلا تموتا » (تك ٣ : ٣) . والحية تقول « كلا ، لن تموتا » . والمرأة تقبل كلام الحية ، وتميل إليه بقلبها ، وتترك كلام الله ، لا تخشاه ، ولا يتعبها إنذاره ...

إذن فهذا ضعف إيمان بالله وبكلمته وبإنذاره . بل هو عدم إيمان بصدق الله ...
وضعف الإيمان هذا ، قادها إلى خطية أخرى وهى :

٦- الاستهانة وعدم مخافة الرب

بدأت تستهين بحكم الله وبتهديده وعقوبته ، ولم تخف إطلاقاً من أن تمد يدها وتأخذ ، كما لو كانت عبارة « موتاً تموتا » ، لا تهزها جفناً ، ولا تحرك ضميرها أو قلبها ... !

على أن إغراء الحية وحديثها ، قاد المرأة إلى خطية أخرى ، دنست قلبها الطاهر ، وهى خيانة الشهوة .

٧- خطية الشهوة

نظرت المرأة إلى الشجرة ، فإذا هى « جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وإذا الشجرة شهية للنظر » ... فاشتتها ...

كانت شجرة معرفة الخير والشر فى وسط الجنة ، وربما كانت حواء تمر عليها كل يوم وتراها . وكانت نظرتها إليها بسيطة ، لا تحمل شهوة ...

أما الآن فإن النظرة قد تغيرت ، لم تعد بسيطة كما كانت أمس وقبلاً من أمس ،
ذلك لأن القلب قد تغير...

القلب قد دخلته شهوة ، فأصبحت نظرتة إلى الشجرة مشبعة بالشهوة . وبالشهوة
صارت الشجرة شيئاً آخر مشتهى ، بل شيئاً مفضلاً على الكل ، حتى على وصية الله .
صارت الشجرة « جيدة للأكل ، وهبة للعيون ، وشهية للنظر » ...
لماذا ؟ لأن خطية أخرى قد دخلت القلب ... فما هي ؟

٨ . خطية الكبرياء

« يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما وتصيران مثل الله ... » . هنا الإغراء الجبار
« تصيران مثل الله » أو تصيران إلهين ... !! إن كان الأمر هكذا ، فلماذا نرضى ونكتفى
بالمستوى البشرى ؟! ولماذا نأخذ من الله موقف الطاعة ، بدلاً من موقف المساواة ؟!
وعصفت شهوة لألوهية بهذه الإنسانية المسكينة فدخلتها الكبرياء .
وأستطاعت هذه الكبرياء أن تحطمها ، كما حطمت الشيطان من قبل لأنه أراد أن
يقع الإنسان في نفس السقطة التي وقع فيها ... وماذا كانت سقطته ؟ يحكيها سفر أشعياء
النبى فيقول :

« كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم ؟ وأنت قلت في قلبك : أصعد إلى
السموات ، أرفع كرسي فوق كواكب الله ... أصعد فوق مرتفعات السحاب ، أصير مثل
العلى . لكنك إنحدرت إلى الهاوية ، إلى أسفل الجب » (أش ١٤ : ١٢-١٥) .

إن عبارة « أصير مثل العلى » التي قالها في قلبه ، هي نفس عبارة « تصبران
مثل الله » التي أغرى بها حواء ...

إن الكبرياء هي التي أسقطت الشيطان ، وهي التي أسقطت الإنسان الأول . وكما
قال أحد القديسين : إن حواء إشتهت مجد الألوهية ، ففقدت ما كان لها من مجد البشرية .
على أن هذه السقطة ، وهذه الكبرياء ، كانت تحمل في داخلها شهوة أخرى ، أو
خطية أخرى ، وهي ...

٩- المعرفة المخربة

« تصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر » « تنفتح أعينكما » ... لقد قدم الشيطان للإنسان هذا الإغراء ، إغراء المعرفة ... إلى متى تظل مقفل العينين لا تعرف ؟ ليتك تأكل لكي تنفتح عيناك المغمضتان ، وتذوق الدنيا وتعرفها ...
إلى متى بغلق الله عليكما في هذه البساطة أو السذاجة ، التي يسمونها التقاوة أو البراءة !! فتظنان هكذا لا تدريان ولا تفهمان الجمال الموجود في الدنيا ، واللذة الموجودة في الثمرة ؟! لماذا يحرمكما الله من هذه المعرفة ؟!
آية معرفة يقصدها الشيطان ؟ لقد وهبها الله فضل معرفته ، وجعلها يعرفان الخير والبر و يذوقان ما في هذه المعرفة من لذة . يجيب الشيطان إنها حرما من معرفة الخير والشر .
وهنا تبدو الخدعة الكبرى التي إنطلق على حواء ... فما هي ؟

إنها يعرفان الخير فقط . والشيطان يريد لها الآن « معرفة الخير والشر » ، أى أن تضاف إلى معرفتها النقية ، معرفة الشر ... !

يا لسخدة الخبيثة ، التي قال عنها الحكيم « الذى يزداد علماً ، يزداد غمّاً » (جا ١ : ١٨) ، يقصد المعارف التي تشوه نقاوة الإنسان ، أو تربك سلامة فكره ...
وأكل الإنسان من شجرة المعرفة ، فصار جاهلاً ... لأنه أخذ معرفة الشر إلى جوار معرفة الخير ، وماذا أصابه أيضاً ؟

١٠- مشكلة الثنائية وفقدان الثقة

ومن ذلك اليوم ، والإنسان يعيش معذباً ، يسبح في بحر العالم ، يحيطه شاطئان :
وللأسف ، فإن معرفة الشر عند كثيرين ، أرتبطت بشهوة الشر ، أو على الأقل أرتبطت بالصراع بين الخير والشر . وعاش الإنسان حياته في هذا الصراع ، وتشوهت أفكاره بمعرفة الشر ، وجلبت له هذه المعرفة الظنون والأفكار ، ووضعت في عقله الواعي أو عقله الباطن صوراً متعبة ، تظهر أحياناً كأحلام ، وأحياناً كشكوك وظنون ، وأحياناً كإدانة للآخرين ، أو كإشمئزاز من وضع معين ، أو كخوف من سقوط ... أو أرتياب في نقاوة .

ولما أكلت حواء من شجرة المعرفة هذه ، بدأت ترى آدم رجلاً يختلف عن أنوثتها . وبدأ آدم يراها أنثى تختلف عن رجولته . وبدأ الجنس يفتح أبوابه .
وكان أول باب هو الخجل . وأحس آدم وحواء أنها عريانان ، وفكرا كيف يستران عريهما ... وفقد الإثنان بساطتهما الأولى ...
ما كان أغناهما عن هذا كله ، لو أنها لم يطلبها هذه المعرفة ، أو عى الأقل طلبها المعرفة من الله وحده . ولكنها وقعتا في خطية أخرى وهى :

١١- طلب المعرفة من غير الله

كان الله هو المعلم الأول والوحيد للإنسان ، يعطيه من لمعرفة ما يفيدته وما يبق على نقاوته .

ثم بدأ الإنسان يتخذ له مرشداً غير الله ، يشير عليه بما يفعل ، ويعطيه معرفة أخرى . وكان هذا المرشد للأسف ، هو الشيطان الذى دخل الحية ، وأرشد الإنسان إلى ما فيه هلاكه ...

وشهوة المعرفة ، بعيدة عن الله ، ومن غير الله ، ملأت الإنسان بمعارف ضيعته . ومازال الإنسان يسمى إلى المعرفة منذ أكل من الشجرة . وفي كل يوم تنفتح عيناه بالأكثر... وتجمع له الخواص أحياناً ما يضره ...

ويستمر في ثنائية المعرفة ، التى تشمل الخير والشر ، إلى أن يهب له الله فى لأبدية إكسيل البر ، فيتقياً ما أكله من معرفة الخير والشر ، ويعود لا يعرف غير الخير وحده ، وينسى فى النعيم الأبدى ما كان قد عرفه فى العالم من شر . يمحو الله من ذاكرته ومن علمه ومعرفته كل معرفة الشر فى الإنسان الجديد الذى يقوم من الأموات فى نقاوة لا تعرف شراً .

ويصير الجميع متعلمين من الله (يوحنا : ٤٥) . ولا يعود الشيطان يعلم ويرشد بلقى أفكاره فى عقول الناس ... بل فى الأبدية سناخذ معرفة بديلة ، هى معرفة الله الذى يكشف لنا ذاته . وكما قال ربنا يسوع المسيح لله الآب « هذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحده ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » (يوحنا : ١٧ : ٣) .

حينئذ يكون الله هو مصدر معرفتنا ، وقمة معرفتنا ، وتبطل مشورة الشيطان الذى أسقط

أما حواء فى القديم ، فأكلت ...

وظهرت في أكلها خطيئة أخرى وهي :

١٢- حفظ الوصية عقلاً لا عملاً

كانت حواء تحفظ الوصية حفظاً عقلياً ! لذلك عندما سألتها الحية « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ » ، صرحت لها حواء منطوق الآية ، وذكرت تفاصيلها ، فقالت للحية « من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة ، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسأه لئلا تموتا » . إنه حفظ دقيق لم يكتف بالمنع عن الأكل ، بل عن اللمس أيضاً ...

والعجيب أنها في نفس الوقت الذي ذكرت فيه الوصية بهذه الدقة العجيبة ، عادت وكسرت الوصية ، ومدت يدها وقطفت وأكلت ... ! لقد حفظت الوصية عقلاً لا عملاً ...

إنها تذكرني بالشاب الغني الذي كان يحفظ الوصايا ، وقال عنها للسيد الرب « هذه حفظتها منذ حدثتني » . وفي نفس المناسبة مضى حزينا ، لأنه كان يعبد إلهاً آخر هو المال ، بينما تقول الوصية الأولى « لا تكن لك آلهة أخرى أمامي » (خر ٢٠ : ٣) . وفي الأكل من الشجرة ، وقعت حواء ، كما وقع آدم أيضاً في خطيئة أخرى وهي :

١٣- الانحدار إلى المستوى الجسدي

الأكل ، وشهوة الأكل ، والنظر إلى شجرة على أنها « جيدة للأكل » ... كلها أمور جسدية إنحدرت إليها آدم وحواء ، بأسباب نفسانية ، سقطا بها عن المستوى الروحي .

ولذلك اعتبر البعض أن الوصية الأولى التي أعطيت للإنسان ، كانت وصية صوم ، تشبه صومنا في هذه الأيام ، نأكل من الكل ما عدا نوع واحد وهو الأطعمة الحيوانية . كذلك أعطى لآدم وحواء أن يأكلا من الكل ما عدا نوع واحد هو ثمر هذه الشجرة .

ولكن آدم وحواء كسرا هذا الصوم ، وأكلا من هذا الصنف المحرم . وبالأكل سقطا من المستوى الروحي إلى المستوى الجسدي .

وهذا السقوط ، استمرت معها حروب الجسد فيما بعد . حتى أن بعض لعقوبات التي فرضها الله عليها ، كانت تحمل إشارة إلى هذا المستوى الجسداني الذي هبط إليه :

قال للمرأة « تكثيراً أكثر أتعاب جسدك . بالوجع تدين أولاداً » .
وقال لآدم « لأنك سمعت لقول إمرأتك ، وأكبت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونة لأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ... يعرق جبينك تأكل خبزاً ... وتأكل عشب الأرض » (تك ٣ : ١٦-١٩) .

هذه عقوبة الأكل . على أنه في الأكل من الشجرة كانت توجد خطية أخرى :

١٤- عدم القناعة

الله أعطى أبونا الأولين أن يأكلا من كل شجر الجنة ، ماعدا واحدة . ولا شك أنه كانت توجد ثمار كثيرة جداً في الجنة ، بل كان فيها كل نوع ثمر... ولكن هذا كله لم يقتنع به آدم وحواء ولم يكفيا ، بل أرادا الأكل من هذا النوع لواحد النقص . وهذا يدل على عدم القناعة .

وما زال مرض عدم القناعة موروثاً حتى الآن « العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع » « وكل الأنهار تجري إلى البحر ، والبحر ليس يملأ » (جا ١ : ٧، ٨) .

على أن حواء في أكلها من الثمرة المحرمة ، لم تقع فقط في كل هذه الخطايا ، إنما أضافت إليها خطية أخرى وهي :

١٥- إعتار الآخرين

لم يقتصر أمرها على كسر الوصية والأكل من الشجرة ، وإنما يقول الكتاب إنها « أكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل »
الخطأ ، وقادته إلى كسر الوصية ، وكانت سبباً في ضياعه ، ووضعت أول بذرة للعشرة ، ولإعتار الآخرين ...

والعجيب أن البعض يظنون أن خطية آدم وحواء هي مجرد الأكل من الشجرة !
فعلى الرغم من كل الخطايا التي ذكرناها ، توجد خطايا أخرى كثيرة ارتكبتها أبوانا
بعد الأكل من الشجرة .
فما هي هذه الخطايا ؟

١٦- تغطية الخطية بأوراق التين

لما أكلنا « إنفتح أعينها ، وعلم أنها عريانة » ، إذ فقدنا نقاوتها ، وفقدنا بساطتها
الأولى . فبدلاً من معالجة الخطية والتخلص منها ، والرجوع إلى النقاوة الأولى ، قاما بتغطية
الخطية بأوراق التين . وهكذا تغطى آدم وحواء ، ولكن بقي القلب من الداخل غير سليم ،
والشعور كما هو...

وأصبحت أوراق التين ترمز إلى تغطية الخطية ، دون التخلص منها .

ولهذا نرى أن الرب لم يوافق على فكرة أوراق التين . « صنع الرب لإله لآدم وامرأته
أقصة من جلد وألبسهما » (تك ٣ : ٢٠) .

ومن أين أتت قصة الجلد ؟ لعلها أتت من ذبيحة ، سُفِكَ دمها لأجلها ، وتغطيا
بجلدها . وهنا بدأ الرمز العميق :

الخطية تعري الإنسان وتنجله ، والذبيحة تغطيه وتستره ، بل وتطهره ...

إنه معنى ربما يكونان قد عرفاه بسيطاً في بادئ الأمر ، وأق التعمق فيه على مر الزمن
فيما بعد .

بعد الخطية ، شعر آدم وحواء بالعري ، وبالخزي ، فاستترا بأوراق التين ... وماذا
بعد ؟ لقد وقعا في خطية أخرى كبيرة وهي :

١٧- الهروب من الله

« سمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة ، عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم
وامرأته من وجه الله في وسط شجر الجنة » (تك ٣ : ٨) .

أصبح هناك تباعد بينها وبين الله ... وجدت هوة فاصلة ... لم يعودا مفرحان بالوجود في حضرة الرب . فحالما سمعا صوته مقبلاً ، هربا من وجهه وأختفيا ...

وصار الهروب من الله خطية موروثة في نسل آدم وحواء . فما أن يقع الإنسان في الخطية ، حتى يبدأ في سلسلة من الهروب : يهرب من الصلاة ، لأنه يخجل من الكلام مع الله وهو في الخطية ! وهرب من الكنيسة ، ومن أب الاعتراف ، ومن الاجتماعات الروحية ، ومن الأصدقاء الروحيين ، إلى أن يقطع كل صلة له بالله ... !

ولعل الهروب من الله ، بالنسبة إلى آدم وحواء ، قد دفعت إليه خطية أخرى وهي الخوف .

١٨- الخوف

والخوف إن لم يكن خطية في حد ذاته ، فعلى الأقل هو إنحدار في المستوى ، إنحدار من مستوى الحب الإلهي الذي كانا يعيشان فيه . ويقول القديس يوحنا الرسول « لا خوف في المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج . لأن الخوف له عذاب . وأما من خاف ، فم يتكلم في المحبة » (١ يوحنا : ٤ : ١٨) .

وواضح من إجابة أبينا آدم أنه خائف . ولا نقصد المخافة التي تحمل مهابة الله ، وإنما الخوف بمعناه الخوف ، الذي يدعو إلى الهرب والاختفاء . وفي هذا يقول للرب « سمعت صوتك في الجنة فخشيت ، لأني عريان فاختبأت » (تك : ٣ : ١٠) .

وبالنسبة إلى آدم وحواء ، لا نقول فقط إنها نزلتا من مستوى الحب ، بل عملاً أعمالاً ضد محبة الله .

١٩- الخروج من محبة الله

* لا شك أن كسر الوصية كان عملاً ضد محبة الله . لأن الرب يقول « الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني » (يوحنا : ١٤ : ٢١) . ويقول القديس يوحنا الحبيب « من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياي ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقاً في هذا قد تكلمت محبة الله » (١ يوحنا : ٣ : ٤) . إذن كسر الوصية ضد المحبة .

* ورغبة آدم وحواء في أن يصيرا « مثل الله » حسب إغراء الحية ، كان عملاً آخر ضد محبتها لله .

* وتصديق كلام الحية ، عكس كلام الله ، كان أيضاً عملاً ضد محبة أبويننا الأولين لله .

* وفي مناقشتها مع الله ، كانت الطريقة لا تتفق والمحبة .

* وهروبها من وجه الله ، واختفاؤها ، كان عملاً رابعاً منها ضد محبة الله .

كذلك في خوف أبويننا واختبائهما ، وقعا في خطية أخرى ، وهي عدم السعي للصلح مع الله .

٢٠ - عدم السعي الى الخلاص

إنها إنسانان قد كسرا وصية الله ، وأصبح محكوماً عليهما بالموت . فإذا فعلا للتخلص من حكم الموت هذا ؟ هل سعيا إلى الخلاص ؟ هل بذلا جهدهما لكي يصطلحا مع الله ولكي يعودا إلى علاقة الحب الأولى ؟ كلا .

لقد شل الخوف تفكيرهما ، فلم يقوما بأي عمل من أجل خلاص نفسيهما الهالكتين ، إنما أسرعا بالاختفاء من وجه الله .

وفي الاختفاء من وجه الله في وسط الشجرة وقعا في خطية أخرى وهي الجهل بالله وقدرته ...

٢١ - الجهل بالله وقدرته

إلى أين يهرب هذان المسكينان من وجه الرب ؟ وأين يختفيان ؟ لقد كان حفيدهما داود أكثر معرفة بالله حينما قال :

« أين أذهب من وجهك ؟ ومن وجهك أين أهرب ؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت في الهاوية فهي أنت ... » (مز ١٣٩ : ٧ ، ٨) ... فما معنى الاختباء وسط الشجر إذن ؟!

هل لشجر يخفيها عن عين الله الفاحصة الخفيات والظاهرات ؟ أم أنها جهلا قدرة الله

على كل شيء ...

حقاً إن الإنسان لما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً ، نشد وعده الشيطان و... أرائفاً

لم يبره ...

وفي المناقشة بين الله وأبويننا الأولين ، نرى في أجابتهما عدداً كبيراً من الأخطاء ،

منها :

٢٢- عدم إدانة النفس

إن كان هذا الإنسان قد أكل من شجرة المعرفة ، وعرف الخير والشر ، فعلى الأقل أصبح يعرف أنه قد أخطأ .

ولكن كلمة « أخطأت » لم يقلها آدم إطلاقاً ، ولم تقلها حواء .

لم يعترف أحد منها بهذه الخطايا التي ذكرناها ، ولا بشيء منها . لم يقم أحد منها بإدانة نفسه ، ولم تكن لأى منها حكمة القديس مقاريوس الكبير الذى قال : [أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك] ...

و ياليتها لم يديننا نفسيهما وصمتا ، بل أنها وقعاً فى خطية أصعب ، وهى محاولة تبرير النفس ...

٢٣- محاولة تبرير النفس

كل منها حاول أن يبرر نفسه . حاول أن يوجد لنفسه عذراً أو أعذاراً يغطى به خطيته ، أو يقلل من الجرم الذى وقع فيه . ولم يقبل الله شيئاً من تبريراتها وأعذارها ، لأن الخطية واضحة .

أمام الله يستد كل قم . وإن تكلم الإنسان ، فإنما ليعترف ويدين نفسه ويطلب الرحمة ، وليس غير . أما محاولة تبرير النفس ، فهى نوع من المكابرة والكبرياء .

وفى تبرير كل من آدم وحواء لنفسه ، وقع فى خطية أخرى وهى إلقاء التبعة على الآخرين .

٤٤- إلقاء التبعة على الآخرين

حواء ، تلقى التبعة على الحية فتقول « الحية غرتني فأكلت » . وآدم يلقي التبعة على حواء « المرأة أعطتني فأكلت » ...
ولا يلقي أحد منها بالتبعة على نفسه ...

ولم يكن إلقاء التبعة على الآخرين عذراء مقبولا : فآدم كان يستطيع أن يرفض الأكل ، ولا يسمع لحواء ، بل كان يستطيع أن يوبخها ، بل أكثر من هذا كان يمكنه أن ينصحها ويمنعها قبل الوقوع في الخطية .
أما أن تقدم له من الثمرة فيأكل دون تفكير ، دون إمتناع ، ودون تذكر لنوصية دون تذكر للعقوبة ، فهذا أمر لا يقبله أحد .
وحواء بالمثل ، كانت تستطيع أن ترفض إغراء الحية ...
وحينا التي آدم بالتبعة على حواء ، إنما وقع ضمناً في خطية أخرى ، تخدش المحبة التي بينهما .

٤٥- ضد محبة القريب

كما كسر آدم محبته لله ، كسر أيضاً محبته للقريب . والقريب الوحيد هنا كان حواء .
إتهمها أمام الله ، وحملها تبعة سقوطه في الخطية .
وهكذا التي أول بذرة للخلافات الزوجية . ونشكر الله أن حواء لم ترد على آدم ، ولم تدخل معه في مناقشة ، بل لزمّت الصمت ، ومرت المشكلة من جهتها بسلام .
على أن إتهام آدم لحواء ، كان يحمل خطية أخرى :

٤٦- الاختفاء وراء امرأة

ما كان يليق بأبينا آدم - الرجل الأول في البشرية أن يختفي وراء امرأة لكي ينجوا !
يقدمها للإتهام ، ويحملها المسؤولية ، لكي يتبرر هو !

الأمر المشالي ، أن يتحمل أخطاءها ، وينسبها لنفسه ، كمسئول ، وينجيها من

العقوبة ، و يتصدر الموقف و يتركها تحتى وراءه . يحمل خطاياها ، تنجا حل المسيح خطايا عروسة الكنيسة ... لكن آدم فعل العكس .
لا أريد أن أعنى على الموقف بأكثر من هذا ...

٢٧- عدم اللياقة في الحديث

وفى دفاع آدم عن نفسه بالقاء التبعة على المرأة ، فقد اللياقة اللازمة فى التحدث مع الله نفسه ... !

فلم يكتف بقوله « المرأة أعطتنى فأكلت » وإنما قال الله : « المرأة التى جعلتها معى ، هى أعطتنى » .

وكأنه بهذا يشرك الله فى المسئولية ، أو يجعل الله صاحب السبب فى سقوطه ، لأنه أعطاه المرأة التى أعطته الثمرة ... ! وكان تعبيراً غير لائق من جهة آداب الحديث مع الله . ولم يرد الله عليه ...



من هذه السقطات التى وقع فيها أبوانا الأولان نستنتج :

✱ أن الخطايا لسيت عواقب ، وإنما تلد خطايا أخرى ... و يكفى أن يجر الإنسان أول الخيط ، لكى ينساب كله ، ويجد أن خطية تقوده إلى أخرى ... إلى غير إنتهاء ...

✱ كذلك نستنتج أنه يلزمنا التدقيق فى محاسبتنا لأنفسنا وفى إعترافاتنا ...

فربما نظن أننا إقترفنا شيئاً بسيطاً ، بينما هذا الشئ يحوى العديد من الخطايا ، التى ربما تُخفى عن معرفتنا ، ولكننا بقتيل من التحليل ندركها ...

وها قد رأينا كيف سقط أبوانا آدم وحواء ، وكيف بدأ الفساد ينخر فى الطبيعة البشرية على مدى العصور ، حتى أتلّفها تماماً .

بقى أن نتأمل نتائج السقطة الأولى للبشرية :

نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

١- اللعنة

• اللعنة لم تصب آدم وحواء لسببين :

أولاً : لأن الله كان قد باركها قبلاً (تك ١ : ٨) وهبات الله بلا ندامه (روم ١١ : ٩) ، ولا يرجع فيها مهما حدث . إنها لا تتوقف ، على أمانتنا ، بقدر ما تتوقف على جوده هو وكرمه ...

ثانياً : لأنه لولعن آدم وحواء ، لكانت اللعنة قد أصابت الجنس البشرى كله ، الموجود في صلبها ، كما لعن فيها بعد كنعان فلعن كل نسله ، وكذلك قايين وكل نسله . ولا يمكن أن يلعن الجنس البشرى كله ، ومنه سيأتي أنبياء وأبرار يباركهم الرب ويكسبون بركة ... بل من نسل آدم سيأتي السيد المسيح - حسب الجسد - الذي سيسحق رأس الحية ، وبه « تتبارك فيه جميع قبائل الأرض » (تك ٢٢ : ١٨) .

• ولكن اللعنة أصابت الحية التي أغرت حواء بأكل الثمرة . كذلك أصابت اللعنة الأرض التي تخرج ثمراً للأكل :

١ - فقال الله للحية « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها . وهويسحق رأسك ،

ونلاحظ أن لعنة الحية ، كانت تحمل عقوبة ضمنية للإنسان .

أصبحت هناك عداوة بينه وبين الحية ، ولم توجد من قبل أية عداوة بينه وبين أحد من الخليقة كلها . كما أن سلطانه على الحيوان قد إهتز ، فصارت الحية تستطيع أن تسحق عقبه ، وتؤذيه ! وهو الذي كان ملكاً مسلطاً على كل أنواع الخليقة . وهكذا ضاع جزء من هيئته ومن سلطته ...

على أن سلطان الحية قد إهتز عندما أعطانا السيد المسيح سلطاناً أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو . وإنتهى حينها سحق المسيح رأس الحية ... وعبرة « وتراباً

تأكلين كل أيام حياتك» ، فيها تعرض بالإنسان الذي قال له الرب في نبؤة المناسبة
« أنت تراب وإلى التراب تعود » (تك ٤ : ١٩) .

الإنسان البار ، هو صورة الله ومثاله . أما الإنسان الخاطئ فهو تراب . وكتراب يصير
طعاماً للحية ، لأنها تأكل تراباً كل أيام حياتها ... هذا هو المعنى الرمزي كما تأمله القديس
أوغسطينوس ...

وفي داخل هذه العقوبة التي أوقعها الله على الحية ، وضمناً على الإنسان ، كان
يوجد الوعد بالخلاص ...

وعد بأن نسل المرأة سيسحق رأس الحية . وهذه كانت أول نبوءة عن مجيء السيد
المسيح لخلاصنا .

ويُظهر لنا هذا الوعد حنواً لله على الخطاة ، ويزيده عمقاً أنه وعد بالخلاص ، وعد به
الله فيما هو يعاقب ويقتص من الخطية . حقاً إن عدله مملوء رحمة ، وأنه رحيم في عدله ،
وصفاته لا تنفصل عن بعضها البعض ...

إن الله لم يلعن الإنسان ، ولكنه لعن الحية التي أغوت الإنسان ، وكانت في لعنتها ،
عقوبة ضمنية للإنسان . كذلك لعن الله الأرض التي يعيش عليها الإنسان .

* وفي اللعنة التي أصابت الأرض ، كانت توجد أيضاً عقوبة ضمنية موقعة على
الإنسان نفسه :

كانت لعنة الأرض ضمن العقوبة التي أوقعها الله على الإنسان ، إذ قال له « ملعونة
الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، حتى
تعود إلى الأرض التي أخذت منها ... » (تك ٣ : ١٧ - ١٩) .

بهذه اللعنة بدأت الأرض تتمرد على الإنسان ، كما أصبحت الحيوانات تتمرد
عليه ، مثلة في الحية ، وهكذا فقد الإنسان هيئته ، فيما كانت تعدّه الحية بالإلهوية !!

أول تمرد للأرض ، يكمن في عبارة « بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك » . الأرض
الباركة ، لا يتعب فيها الإنسان . أما لأرض الملعونة فتتعبه . كان آدم قبل الخطية يعمل
في الجنة ، ولكنه كان عملاً مريحاً ، ولم يذكر الكتاب مطلقاً إنه كان يتعب في عمله ، أو
أنه كان يتعب ليحصل من الأرض على أكله ...

هذه اللعنة نجدها واضحة في قول الرب لقايين ، أول إنسان لعنه الله « متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (تك ٤ : ١٢) .

وتتمرد الأرض يظهر أيضاً في عبارة « شوكاً وحسكاً تنبت لك » ... لأول مرة نسمع عن الشوك والحسك ، إذ لم يرد لهما ذكر من قبل في نباتات الأرض وحينما نظر الله إلى كل ما عمله فإذا هو حسن جداً : إن الأرض العطشانة ، والمحرومة من بركة الله وخيره ، يمكن أن تنتج شوكاً وحسكاً . وهي تحرم من بركة الله وخيره ، بسبب خطية الإنسان . لذلك قال له الله « ملعونة الأرض بسببك » .

إن الإنسان البار ، به تتبارك الأرض ، والإنسان الخاطيء بسببه تلعن الأرض ، كما ورد في سفر التثنية (تث ٢٨) .

يقول الرب لمن يحفظ وصاياي « مباركاً تكون في المدينة ومباركاً تكون في الحقل . ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك ... » (تث ٢٨ : ٣ ، ٤) . وبالعكس ذلك يقول الرب لمن لا يحفظ وصاياي « ملعوناً تكون في المدينة ، وملعوناً تكون في الحقل ... ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك » (تث ٢٨ : ١٦ ، ١٨) .
لما لعنت الأرض ، قل خيرها ، وأصبحت تنتج شوكاً وحسكاً .

وجاء المسيح الذي حمل خطايانا على الصليب ، فحمل أيضاً على جبينه الشوك والحسك اللذين أنتجتها خطية الإنسان .
فبما إنه كانت من نتائج الخطية اللعنة . وماذا أيضاً ؟

٢- الموت

« يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) .

كان الموت هو العقوبة الأساسية للخطية .

والكل قد خضع له ، مات آدم وحواء ، ومات كل نسلهما ، وسيموت النسل الذي يولد فيما بعد . ويظل الموت إلى أن ينتهي هذا العالم .

و يقول الكتاب إن « آخر عدو يبطل هو الموت » (١ كو ١٥ : ٢٦) . يحدث هذا في نهاية العالم ، حينما تتغير طبيعتنا في القيامة العامة ونلبس الحياة ، أو كما يقول الرسول « هذا

المائت يلبس عدم موت» (١ كو ١٥ : ٥٣) . عندئذ فقط نقول له « أين شوكتك يا موت ؟! » ... أما قبل هذه القيامة ، فتظل شوكة الموت في أجسادنا جميعاً ... نتيجة لخطيئة آدم وحواء ...

*** ولكن لم يكن ممكناً أن يموت أبوانا في التواللحظة ...**

والأ تكون البشرية كلها قد إنتهت وزالت ، ويكون لشيطان قد إنتصر في المعركة إنتصاراً ساحقاً ، ولا يكون هناك خلاص ، الخلاص الذي أعده الرب لآدم وبنيه ...

لذلك تأجل هذا الموت إلى حين ، ربنا تلد حواء نين وتربيهم . لأنه فيما بعد سيأتي من نسل المرأة من يسحق رأس الحية ، ويطلب ويخلص ما قد هلك .

*** ومع تأجيل هذا الموت الجسدى ، كانت هناك أنواع أخرى من الموت ، تم بعضها في التواللحظة :**

هناك الموت الروحى ، وكما قال .لقديس أوغسطينوس [موت الجسد هو انفصال الروح عن الجسد . أما موت الروح ، فهو انفصال الروح عن الله] ...

ولهذا أعتبر الكتاب أن الخطية موت ، فقال الآب عن ابنه الضال « إبنى كان ميتاً فعاش » (لو ١٥ : ٢٤) . وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « إن لك إسماعاً إنك حى ، وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) . فالخطية موت روحى ، لأنها تفصل الإنسان عن الله ، لأنه لا شركة للظلمة مع النور ...

*** وآدم وحواء قد ماتا هذا الموت الروحى يوم أكلا من الشجرة ، وماتا أيضاً موتاً آخر أديباً :**

في هذا الموت الأدبى ، ضاعت كرامة هذا الإنسان الأول ، وفقد الحالة الفائقة للطبيعة التى خلق عليها ، كما سنشرح في النقاط المقبلة ... وأكبر تعبير على هذا الموت الأدبى ، أن الله طرده من الجنة . وعبارة « طرد » تعنى كثيراً من جهة الموتين الأدبى والروحى . على أنه من جهة هذين الموتين ، ظل الله يعمل عملية إقامة من الأموات بالنسبة إلى آدم وبنيه ، لكي يرجعهم إلى رتبهم الأولى ، ولكي تتم مصالحة بينهم وبين الله . ولكن لأمر كان يتوقف على مدى الإستجابة الفردية لعمل النعمة في كل إنسان على حدة ...

« بقى الموت الأبدى ، وهو أخطر ما فى حكم الموت : وهو الذى خلصنا منه المسيح بالفداء ، حين مات عنا ...

ولكن آدم وحواء وبنهما جميعاً ، ظلوا تحت حكم الموت فى كل العصور السابقة للفداء . وكان كل الذين يموتون ، يذهبون إلى الجحيم . والمؤمنون منهم ، الراقدون على الرجاء ، يرتلون مع داود « لأنك لا تترك نفسى فى الجحيم ، ولا تدع قدوسك يرى فساداً » (مز ١٥ : ١٠) .

ولأن الخطية حرمت الإنسان من الحياة ، وأوقعته فى الموت ، لذلك رأينا أمراً خطيراً قد صدر من الله « وأقام شرقى جنة عدن لكاروبيم ، وهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (تك ٣ : ٢٤) .

٣- فقدان الصورة الإلهية

فى حالة البر الأولى ، كان آدم على صورة الله ، ومثاله ، كما قال الله « نخلق إنساناً كشبهنا » . أما فى حالة السقوط ، فقد فقد الإنسان هذه الصورة الإلهية . وفساد الطبيعة البشرية ، الذى سنتحدث عنه فى النقاط التالية ، لم يعد يتفق مع الصورة الإلهية التى كانت له يوم خلق . ولهذا نجد الله يخاطبه بنغة أخرى تتفق وصورته فى الخطية ، فيقول له « لأنك تراب ، وإلى التراب تعود » ...

كان صورة الله ، فأصبح تراباً .

ننتقل إذن إلى النقطة الرابعة من نتائج الخطية ، وهى :

٤- فساد الطبيعة البشرية

فقدت الطبيعة البشرية نقاوتها الأولى ، وبساطتها الأولى ، وعرفت الخطيئة ، وأختبرتها ، ودخلت فى ثنائية معرفة الخير والشر ، وفى الصراع بين الجسد والروح ، وهبطت إلى المستوى الجسدى أحياناً كثيرة . أصبح من السهل أن تخطئ ...

وقد رأينا فيما بعد ، كيف إنهارت هذه الطبيعة البشرية ، وانحدرت إلى مستويات

مؤسفة ، وتوارثت ألواناً من الفساد ، إلى أن وصلت إلى محبة الخطية ، وإلى العبودية لها ، وإلى إنكار الله ، والجهل به .

وفقد آدم وحواء هيبتها ، وسلطتها على الطبيعة ، وعلى الحيوان ، فتمردت عليها الأرض ، وصارت تنبت لها شوكاً وحسكاً ، وتمرد عليها الحيوان ، وقامت عداوة معه ...
وظهر فساد الطبيعة البشرية أيضاً في انحلالها ، في تعب الجسد وتعب النفس ، وستبقى في هذا الفساد إلى يوم القيامة حين « يلبس الفاسد عدم فساد » (١ كو ١٥ : ٥٤) .

٥- تعب النفس

لأول مرة نسمع عن أمراض النفس : نسمع في قصة آدم وحواء عن الشهوة ، وعن الخوف ، وعن الخجل « أى الخزي » ، ثم عن معرفة آدم لحواء ... وعن سائر تعب الروح الذى ذكرناه في تحليل خطاياهما .
وكل هذه كانت بداية ، إلى أن نسمع في قصة قايين ، في حياة أبوية آدم وحواء ، عن الحسد والغضب والقتل ، وعن القلق والرعب وفقدان السلام الداخلى (تك ٤) .
وبدا أن أمراض النفس والروح قد أخذت تزداد ، كمظهر من مظاهر فساد الطبيعة البشرية .

٦- تعب الجسد

أصبح آدم يأكل خبزه بعرق جبينه . يعمل فى الأرض وبالتعب يأكل منها كل أيامه ...
وأصبحت حواء بالوجع تلد أولاداً ، كما قال لها الرب « تكثيراً أكثر أتعاب حبلك » (تك ٣ : ١٦) .
وثمة تعب آخر ، هو شهوات الجسد وغرائزه ، إشتياقاته ...
وقبل الخطيئة ، لم يكن هناك تعب ، ولا وجع ... وما هذا كله إلا مظهر آخر لفساد الطبيعة البشرية .

وبدا أن الحية لم تصدق في خداعها . فبدلاً من ارتقاء الإنسان ليصير مثل الله ... إنحدر إلى أسفل .

وكان إنحدار آدم وحواء ، هو «مبتدأ الأوجاع» .

ولم يعد هناك من حل ، سوى إنتظار الخلاص الذي يأتي به المسيح ، حيث ينضج علينا بزوفاه فنظهر ، و يفسدنا فنبقى أكثر من الشالج ، ويمنحنا بهجة خلاصه (مز ٥٠) .



- ٢ -

هابيل

أول من وصف بأنه بار (عب ١١: ٤)

وأخوه قابيل

أول قاتل على الأرض (تك ٤: ٨)

لا شك أن قصة قايين وهابيل ، هي من القصص المؤثرة ، لأنها تمثل أول حادث قتل يحدث بين أخين ، بل بين شقيقين ، من أب واحد وأم واحدة ، ولم يكن يوجد في الأرض أخوة غيرهما ... أى أن قايين لم يكن له في الدنيا سوى أخيه هابيل ، ومع ذلك قام عليه وقتله ... !

كيف دخلت الخطية ؟ وكيف بدأت ، وكيف تطورت ؟ وماذا كانت نتائجها ؟

لقد ولد قايين ميلاداً حسناً ، وسمى قايين . لأن أمه اعتبرت أنها قد أقتنته من الرب (تك ٤ : ١) ، أى حصلت عليه من الرب ... وكان قايين عاملاً في الأرض ، وكان أخوه هابيل راعياً للغنم .

وظل هذان الأخوان يعيشان معاً في هدوء ، إلى أن دخل بينهما نوع من التنافس ... لقد قدم كل منهما قرباناً للرب ، فقبل الرب قربان هابيل ، ولم يقبل قربان قايين . فغضب قايين على أخيه هابيل وقتله ...

مشكلة هابيل ، إنه إنسان مقبول من الرب !
هكذا كانت مشكلة مريم أيضاً ، التى اختارت النصيب الصالح ، وجست عند قدمى المسيح ، فرضى عنها . وإستاءت أختها مرثا ووجهت إليها اللوم وغضبت عليها ... !
ما ذنب مريم ، إذا جلست عند قدمى المسيح ورضى عنها ، وما ذنبها إذا كان عمل مرثا ليس فى مستوى عملها ؟ !

قايين وجد أن قربانه غير مقبول كأخيه ، فدخله الحسد ... وكان هذا الحسد بدء الشر الذى دخل قلبه ، وإنهى به إلى قتل أخيه . وربما كان الحسد أيضاً هو الذى دفع الشيطان إلى إسقاط آدم وحواء ، إذ رأى أن الله قد أحبها وباركها ، وأعطاهما سلطاناً ومركزاً ، وقد خلقهما على صورته ومثاله ، فحسدهما الشيطان ، ودبر خطته لإسقاطهما .. ولذلك نقول فى القداس الإلهى « والموت الذى دخل إلى العالم بحسد إبليس ، هدمته ... » .

مساكين هم الأشخاص الذين يسرون فى طريق الرب ، لأن الشر يتضايق من نجاحهم ومحبة الله لهم . فيدبرهم ما يشاء أن يدبر ... إنه حسد الشياطين وأعوانهم ...

سواء في ذلك آدم ، الذي حسده الشيطان في الجنة ... أو هابيل أنبار ، الذي قدم لله قرباناً أفضل من أخيه قايين ، فحسده أخوه وقتله .

أوداود ، إذ مسحه صموئيل ملكاً ، ونجح في حياته ، فتضايق أخوته ، وتضايق أيضاً شاول الملك ، وحسده ، ودبر لقتله ...

أويوسف الصديق ، إذ كان إنساناً موهوباً ، ومحبوفاً عند أبويه ، فحسده أخوته ، وباعوه كعبد ...

أو السيد المسيح نفسه ، الذي كان يجول يصنع خيراً : فإذا رأى الكهنة أن « الكل قد ساروا وراءه » ، حسدوه ، وجمعوا عليه شهود زور ، وإتهموه باطلاً ، وقدموه للصلب ...

وهكذا كانت مشكلة هابيل ، أن قربانه كان مقبولاً أمام الله ، فتضايق أخوه ، ويقول الكتاب في ذلك : « فإغتاظ قايين جداً ، وسقط وجهه » (تك : ٤ : ٥) .

إذن قايين لم يكن يسعى إلى محبة الله ، وإلى إرضاء قلب الله ، إنما كان يبحث عن كرامته الشخصية ورضاه عن نفسه وعن مركزه .

لو كان يبحث عن محبة الله ، لكان في حالة رفض الله لقربانه ، يفتش كيف يرضى الرب ، ولا مانع من أن يغير قربانه ، ويقدم ذبيحة كهابيل ، ويحسن تصرفه . ولعل هذا ما قصده الرب بقوله له : « إن أحسنت ، أفلا رفع » (ع ٧) أي أفلا يرتفع وجهك ، إن أحسنت التصرف ، وإن أحسنت التقدمة ، وإن أحسنت التفكير والشعور ...

كانت أمامه فرصة لتحسين موقفه ، ولكنه لم يستغلها ، ولم يستفد من توجيه الرب ، الذي تنازل وكلمه ...

كان أمامه أن يتضع ، ويشعر أن قربانه « من ثمار الأرض » ليس هو حسب مشيئة الرب ، وإنما مشيئة الرب هي أن يقدم ذبيحة ، محرقة سرور للرب ، كما فعل أخوه البار هابيل . ولكن قايين لم يشأ أن يعترف بينه وبين نفسه أنه مخطيء في تقدمته ، وأنه يجب أن يسلك كأخيه . إنما ركز على كرامته .

كانت ذاته تنعبه . وليته كان يحب ذاته محبة سليمة !

إن الذي يحب ذاته محبة حقيقية طاهرة من الكبرياء والعناد ، لا مانع مطلقاً من أن يصحح لهذه الذات أخطاءها ، ويعمل على تطهيرها من نجاساتها . أما محبة الذات الممتزجة بالكبرياء ، فإن كبرياءها تعميها عن رؤية أخطائها ، فتظل كما هي ، وتصر على

سلوكها ... !

وهكذا كان قايين ، محبته لذاته ، حطمت هذه الذات ...

عجبة جاهلة ، غير حكيمة ، لا تعرف النافع لها من الضار... وقديماً فكر الشيطان في ذاته ، فقال «أصعد إلى السموات ، أرفع كرسي فوق كواكب الله ... أصير مثل العلي» (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . وهذه المحبة الخاطئة لنفسه ، ضيع نفسه ...

وبالمثل أحب الإنسان الأول ذاته محبة خاطئة . وإذا أراد أن يصير مثل الله عارفاً الخير والشر ، أضاع هذا الإنسان نفسه ، وطرده من الجنة ، ودخل في حكم الموت .

قايين أيضاً ركز كل تفكيره في ذاته ، كيف يتفوق على أخوه وعظي برضى الرب ؟! ... فرأى أن يتخلص من أخيه ...

يتخلص من هذا البار ، الذى كلما يراه تصغر نفسه و يشعر أنه أقل ... ورأى أنه إذا تخلص منه ، لا يبقى أمامه شخص أفضل ، يثير حسده .

كانت كبرياء الذات ، أهم عنده من نقاء الذات .

لقد نبه الرب إلى أن هناك «خطية رابضة» . وقال له بكل وضوح « وإن لم تحسن ، فعند الباب خطية رابضة ، وإليك إشتياقها ، وأنت تسود عليها » . مازال في متناول يدك أن تتخلص منها ...

إن الخطية مازالت على باب فكرك ، وعلى باب قلبك ، وعلى باب إرادتك . ومازالت إرادتك في يدك ، وأنت تسود عليها ... فاحذر لنفسك قبل أن تتورط ... ما أعظم هذا الحنو ، في معاملة الله للخطاة ...

إنه يظهر لقايين ، أول إنسان هلك على الأرض . ويكلمه ، و يشرح له التجربة التى أمامه ، وينصحه ، بل و يباقره أيضاً : « لماذا سقط وجهك ؟ ليس السبب راجعاً إلى أخيك ، بل يرجع إليك أنت نفسك . إنك لم تحسن التصرف . وإن أحسنت سيرتفع وجهك . علاج مشكلتك في أن تغير مسلكك وتحسن التصرف ، وليس في أن تستسهم للخطية ... إحترس لنفسك عند باب قلبك وفكرك توجد خطية رابضة . حاول أن تنتصر عليها . فأنت مازلت تسود عليها ...

حنو من الله ، أن يظهر لخطاىء ، و يشرح له ، ويحذره قبل أن يسقط ، و يريه طريق التخلص من خطيته ، و يستنده بنصائحه في وقت تجربته ومعاربة العدو له .

قد يخطيء البعض ، ويظن أن الله لا يظهر إلا للقديسين !

إن ظهوره لقائين قبل سقوطه في خطية القتل ، وتحذيره له ، إنما هو مثال عجيب لمحبة الله وطول أناته ، في العهد القديم ، بل منذ بدء الخليقة ...

وكأنه يقول لقائين : تعال يا حبيبي ، لماذا أنت مغتاظ ، ولماذا يسقط وجهك ؟ أنا أريد أن أخلصك من غمك ، وأعيد إليك سلامك . إن الخطية هي التي أفقدتك سلامك .
تخلص منها ، يرجع إليك سلامك ...

**لا تظن أن هابيل هو سبب متاعبك ... كلا ، إن متاعبك سببها الخطية الرابضة .
فإفحص نفسك جيداً ...**

سبب متاعبك ، يكن في طريقة نظرتك إلى الأمور وفي ردود الفعل داخلك إزاء نجاح أخيك ...

لو كانت في قلبك محبة ، لكنت تفرح وتسر ، إن رضى الرب على أخيك ، فلا تغتم ولا تغتاظ . بالمحبة ، تفرح لفرح أخيك ، وتفرح لرضى الرب عليه ...
لكن قايين لم يفرح لفرح أخيه ، ولقبول قربانه ...

مثاله كان الإبن الأكبر ، الذى لم يفرح إذ قبل الأب أخاه الأصغر ، وألبسه الحلة الأولى ، وجعل خاتماً في أصبعه ، وذبح له العجل المسمن . (لو ١٥ : ٢٧ ، ٢٨) .
ذلك الأخ أيضاً إغتاظ ، ولم يكن قلبه مستقيماً تجاه أخيه ، وكان يفكر في ذاته وليس في أخيه ، ونفس الحسد أتعبه ...

**حقاً ، إنها قصة متكررة ، تحدث في كل جيل ، سببها عدم نقاوة القلب ،
والإستسلام لمشاعر الغيرة ...**

لماذا يكون نجاح أخيك ، له رد فعل خاطيء في قلبك ؟! « كان ينبغي أن تفرح وتسر » لأن الله قبل قربان هابيل ... كان ينبغي أن تفرح أيضاً لأن هابيل قد كشف لك الطريق الصالح الذى يرضى الرب ، حتى تسير فيه أنت أيضاً ، وتحصل على نفس لرضى والقبول ...

العجيب أن قايين ، بعد أن كلمه الله ، لم يستجب لكلمة الله ، ولم يفتح لها قلبه ، بل فتحه للخطية ...

بعد أن نصحه الرب ، لم يستفد من النصيحة ، إنما تورط في الخطية ، وبالأكثر ، وقام على أخيه فقتله !

إنه يذكرنا بالشيطان في قصة أيوب الصديق ، لما وقف أمام الله ، ولم يستفد من وجوده في حضرة الله شيئاً . وخرج من عند الله لكي يتعب أيوب الكامل والمستقيم ، ويهدم له بيته ، ويقتل أولاده ويضيع كل غناه ... وبعد أن وقف ثانية أمام الله ، إزداد في شره ، وضرب أيوب بقرح ردىء ، دون أن يستفيد شيئاً من اللقاء مع الله وسماع كلمته ... !

يذكرنا أيضاً بهذا الإسخريوطي ، الذي لم يستفد من عشرته للسيد المسيح ، ولا من أكله معه ، وغمسه لقمته في نفس صحفته ، ولم يستفد من كلام الرب وتحذيراته ، وقام بعد العشاء ليخون سيده ويسلمه !

وسائط النعمة يستفيد منها من يشاء ، ويرفضها من يشاء . إنها لا ترغم الإنسان على عمل الخير ...

الشاب الغني ، تقابل مع السيد الرب ، وسمع نصيحة نافعة من فمه الإلهي ، ولكنه بعد سماعها مضى حزينا ، ولم يقل الكتاب إنه نفذ شيئاً من تلك النصيحة ...

أمر محزون ومخجل ، أن يسمع إنسان نصيحة من فم الرب نفسه ، ثم يمضي حزينا ، ولا ينفذ . هكذا قاين أيضاً ...

إذن ، فلا يجوز أن يحتاج أحد ويقول « مشكلتي الوحيدة هي عدم وجود مرشدين روحيين . ولو كان لي مرشد روحى حكيم ، لصرت قديساً » ...

هوذا أمامنا أمثلة لأشخاص أرشدهم الرب نفسه ولم يستفيدوا ، لأن القلب رافض أن يستجيب ، مثل الأرض التي ألق عليها البذار الرب نفسه ، فأنتجت شوكة ... أو سمحت للشوك أن يخنق زرعها ، وللطير أن يلتقط بذارها ...

لقد تقابل قاين مع الرب ، وللأسف لم يستفد . سعى الرب إليه وأراه الطريق ، ولكنه رفض أن يسير في طريق الرب ، ولم يستجب إلا لفكر قلبه الردىء .

المشكلة تكمن في عدم وجود استعداد داخلي .

لا تقل « إنني أذهب إلى الكنيسة ولا أستفيد » ... لأن غيرك يذهب ويستفيد . لو كنت تريد أن تستفيد لأستفدت . إن لم تستفد من القداس ، يمكنك أن تستفيد من العظة . وإن لم تستفد من العظة ، يمكنك أن تستفيد من مجرد القراءات ، بل من مجرد

الوجود في الكنيسة في جور وحي ... بل يمكنك أن تستفيد - لو أردت - من منظر الأيعونات ،
ومن الشموع ... أو على الأقل تخلو إلى نفسك مع الله ، ولو لحظات ...
وهكذا ، لأن قايين لم يكن لديه استعداد داخلي للاستفادة ، لم ينتفع بكلمة الرب
له ...

لم تكن له أذنان للسمع ، فلم يسمع ...

ربما أثناء حديث الرب معه ، كان منشغلاً بالغيرة التي في قلبه ، وكان الحسد يسد
أذنيه ، وكان الإنفعال الداخلي أعلى صوتاً في القلب ، وكانت ذاته حائلاً يحجب حكمة
الوصية والنصيحة ...

« وكلم قايين هابيل » (تك ٤ : ٨) . ترى ماذا قال له ؟

أترأه قال له « هيا بنا إلى الحقل ، نقضى الوقت بعيداً عن الأسرة ، معاً ... بعيداً عن
ملاحظة الأبوين » ... على أية الحالات ، لم يكن هابيل يتظر خيانة من أخيه قايين . إنه
شقيقه ، ويمكن أن ينام إلى جواره و يغمض عينيه ، دون أن يخشى شراً ، في ثقة بهذه
الأخوة ... لو كان في قلبه أدنى شك من جهته ، لإحترس منه . ولكن حيناً يأتي الشر من
هم فوق مستوى الشك ، حينئذ تكون المأساة أعمق وأكثر تأثيراً في النفس ...

« وقام قايين على هابيل أخيه وقتله » . وهكذا تطورت به الخطية من سوء إلى
أسوأ ، وهو مستسلم لها ...

تطور من غيرة ، إلى حسد ، إلى غيظ ، إلى حقد ، إلى فكر الشر ، إلى تدبيره وتنفيذه ،
إلى قتل أخيه ... وبعد أن كانت الخطية رابضة عند الباب ، دخلت إلى قلبه ، وسيطرت
على فكره ومشاعره وأعصابه وإنفعالاته .

وبعد أن كان يسود عليها ، صارت تسود عليه ...

ودفعته الخطية في طريقها ، فخضع لها ونفذها ... وحينما نفذ إختفت من أمامه كل
المثل : لا محبة ، ولا أخوة ، ولا شفقة ، ولا إرضاء الله ...

وربما ظن قايين ، أنه لا يوجد أحد يراه ...

وأنه سوف لا يعلم أحد بجريمته ، وأنه قد تخلص من هذا المتفوق الذي تصغر نفسه

أمامه ، وأن صوت هابيل قد سكت إلى الأبد .

وهابيل البار ، لم يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وهكذا بدا أن الشر قد إنتصر على الخير ...

وبدا أن الخير لم يستطع أن يدافع ، فهزمه الشر ...

نعم ، إن الشر في الأرض ، يبدو دائماً أكثر جرأة ، وأكثر عنفاً ، وأكثر تسلطاً . يعرف أن يضرب ، ويعتدى ، ويقتل ... والطرق أمامه مفتوحة كلها ، بعكس الخير الذي يعف عن كثير من الوسائل التي يستخدمها الشر .

إن قصة قايين وهابيل ، ترينا مدى إمكانيات الشر :

الشر يستطيع أن يدر مؤامرات ، وأن يتنكر لكل القيم ، وأن يستخدم كل الوسائل مهما كانت خاطئة . يستطيع أن يخون ، وأن يخدع ، وأن يتعدى ، وأن يقتل ، ومع كل ذلك يجرو أن يسترفعلته بالأكاذيب . ويقول في جرأة حتى أمام الله « أحارس أنا لأخي »!؟ ...

الشر استطاع بالنسبة إلى السيد المسيح نفسه ، أن يقدم تهماً باطلة ، وأن يحضر شهود زور ، وأن يتمق قيصر ، وأن يثير الشعب كله ، وأن يصلب البار . والشر استطاع أن يغتصب نابوت اليزريعي ، وفي نفس الوقت ينفق له تهماً تجعله يستحق الموت ... ! (١ مل : ٢١) .

نعم إن الشر قد ينتصر على الخير ... ولكن القصة لها تكملة ... وتكملتها إن الله موجود ، وإنه يحكم للمظلومين .

ربما لم يحسب قايين حساباً لوجود الله ولتدخله ، وظن أن الموضوع بينه وبين هابيل فقط ، وليس من ثالث يتدخل بينها ، لكي يكمل القصة ، و يقيم التوازن .

هذا الثالث العادل ، تدخل بين الخير والشر ...

تدخل ليحاسب ويحاكم ، ويعاقب ، ويشرح للشر أن الأمر لم ينته بعد ، وأن هناك قوة أكبر وأنها عيناً ترى ، وقضاء يحكم . وأن الله لا يترك عصا الخطاة تستقر على نصيب الصديقين .

وأثبت هذا الثالث ، أن إنتصار الشر هو إنتصار زائف ومؤقت ، وأن العبرة
بالنهاية ، والنهاية هي إنتصار الشر .

إذن ، لا تفقد الرجاء أبداً . إن أصابك شر ، وحتى إن قوى الشر عليك ، وعلى ظهرك
جلدك الخطاة وأطالوا إثمهم ، فلا يتزعزع قلبك . ثق أن الله يرى ويسمع ، ويكتب أمامه
سفر تذكرة (مل ٣ : ١٦) . وثق أن الرب صديق هو يقطع أعناق الخطاة (مز ١٢٨) ...

لا تنظر إلى أوائل الأشرار ، وانما إلى نهايتهم ... وأسأل نفسك : من الذى إنتصر :
قايين أم هابيل ؟

هابيل كُتب إسمه في سفر الحياة وهو « وإن مات ، يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) .
أما قايين فعاش على الأرض معذباً طول أيامه ، قلقاً ، خائفاً ، فاقداً سلامه . وإنتظرته
عذبات في الأبدية أشد آلاماً .

إن الشر قد يرتفع على الخير ، ولكنه يتبدد : كمثل النار والدخان . الدخان يرتفع إلى
فوق وفيما هو يرتفع ، تتسع رقعة ، وتقل حدته ، و ينتشر فيندثر ويضعف ويختفى . أما
النار ، إن ظلت تحته ، إلا أنها تستمر بعده في قوتها وفي نقاوتها . إنها أقوى وأشد حرارة ...
ولا تبالى بصعود الدخان إلى فوق ، فوقها ...

هابيل لم يدافع عن نفسه ، فدافع الله عنه .

لم يرو لنا الكتاب أن هابيل دافع عن نفسه ، أو أنه قاوم الشر ، أو حتى أنه شكاً
أو إستنجد أو إستغاث . لقد لاقى مصيره في صمت ، ومات بيد أخيه ...
ولكن القصة لم تم فصولاً . إذ إن الله واجه قايين وسأله « أين هابيل
أخوك ؟ » .

فأجاب « لا أعلم ، أحارب أنا لأخى ؟ ! » ...

وهكذا قادته خطية القتل إلى خطية الكذب ، فكذب على الله نفسه ، وقال له
لا أعلم ، وهو أكثر الناس علماً بمصير أخيه ! ... أو كان الوحيد من البشر الذى يعلم
بمصير أخيه !!

كان قايين كفاراً في مصيدة ، يحاول أن يفلت فلا يستطيع . إنه يلتمس طريقاً
للهرب من مسئولية جريمته . يدعى عدم المعرفة . يدعى أنه غير مسئول عن أخيه وعن

حراسته !! لقد أمسكه العدل الإلهي . فأخذ يكذب على فاحص القلوب والكلبي ،
والعارف بالخفيات والظاهرات ، على الله الذي أنذره من قبل ولم يسمع ...

حقاً ، إن الكذب هو الإبن البكر لكل خطية . هو الغطاء الذي يحاول
الخاطيء أن يغطي به على خطيئته فلا تظهر ...

إنه أسهل طريقة ، وأول طريقة ، يحاول بها أن يهرب من المسؤولية ، من العقوبة ، أو
من العار والفضيحة ... يتدبر أن يوجد خاطيء لا يكذب الذي يعترف بخطيئته ، هو
التائب . أما الخاطيء المستمر في خطيئته فإنه يكذب لسترها ... ولكننا نفهم أن يكذب
خاطيء على إنسان مثله . أما أن يكذب على الله نفسه ، فهذا أمر خطير له دلالة .

إن كذب قايين على الله ، يدل على بعده عن الإيمان . إنه لا يعرف من هو الله ،
وما هي قدرته ، وما هو عمله غير المحدود !

والعجيب أن الله هنا لم يجرح شعور قايين ، ولم يقل له إنه كذاب . بل لم يجادله إطلاقاً
في كلامه ، وإنما واجهه بالحقيقة التي تكشف كذبه ، فقال له « صوت دم أخيك صارخ
إليّ من الأرض » ... إن هابيل لم يتكلم ، ولكن دمه له صوت ، صارخ من الأرض ...

قد بصمت المظلومون . ولكن صمتهم له صوت صارخ إلى الله .

والله يسمع هذا الصوت ، صوت صمتهم الصارخ ... إن يوسف الصديق قد ظلمه
أخوته ووظلمته امرأة فوطيفار ، وصمت ... ولكن صمته كان يصرخ إلى الله ، وسمع الله ،
وتدخل لينقذه من الظلم .

والعمال الذين بخست أجورهم ، يقول الكتاب إن هذه الأجرة المبخوسة تصرخ ،
والصارخ قد دخل إلى أذني الرب (يع ٥ : ٤) .

إن الله يقاتل عنكم وأنتم تصمتون ، لأنه يسمع صوت صمتكم .

إذا ظلم إنسان وسكت ، فلا تظن أن الأمر قد إنتهى عند هذا الحد . فإن صوت
سكوته يرن في أذني الرب ، يقول الوحي الإلهي « من أجل شقاء المساكين وتهدد النائسين ،
الآن أقوم يقول الرب - أصنع الخلاص علانية » (مز ١١) . نعم ، قم أيها الرب الإله ،
وليتبدد جميع أعدائك ، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضى إسمك القدوس ...

« صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك » .

هنا بدأت العقوبة . هنا يجد الشر من يقف في طريقه ، ويقاومه « لى النعمة ، أنا أجازى يقول الرب » (رو ١٢ : ١٩) .

إن لم يجد الشر رادعاً على الأرض ، فهناك رادع من السماء .

ولأول مرة هنا يلعن الرب إنساناً ... عندما أخطأ آدم قال له ملعونة الأرض بسببك ، ولكن لم يلعنه شخصياً .

لعنت الحية ، والأرض ، ولأول مرة هنا يلعن الإنسان .

كان قايين قد فقد الصورة الإلهية نهائياً ، الصورة التي كانت للإنسان حينما خلق على شبه الله ومثاله ... إن قايين لم تغره الحية كحواء ، ولكنه سقط من الداخل . رداعة قلبه قد أسقطته ...

إين الحية فى سفطة قايين ؟

وبلعنته ، لعن كل نسله أيضاً ، وأصبحوا يدعون أولاد الناس ، بينما دعى أولاد شيث « أبناء الله » (تك ٦ : ٢) . واستمرت هذه البعنة ، حتى أفنى الله كل أبناء قايين بالطوفان .

« ملعون أنت من الأرض ، التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك » هذه الأرض التي تنجست بجريمة القتل ، وقبلت الدم المسفوك :

« متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (ع ١٢) .

الأرض تتمرّد عليك ، ولا تعطيك الخير الذى تقدر عليه ... بدلاً من أن تعطيك عشرين أردباً ، تعطيك إثنتين أو ثلاثة . لا تجد بركة فى عمل يديك ، ولا بركة من خير الأرض وثمارها ... بالنسبة إلى البار ، قال الرب « مبارك تكون ثمرة أرضك » (تك ٤٨ : ٤) . وبالنسبة إلى الخاطيء . لعن الله ثمرة الأرض (تك ٢٨ : ١٨) ... فلا تعود تعطيك قوتها ...

إن ثمار الأرض فى يد الله ، يباركها حينما يشاء ، مثلما بارك غلة العام السادس ، فكان يكنى ثلاثة أعوام ...

أما إذا سلك الإنسان فى الخطية ، فقد يعاقبه الله بتمرّد الأرض عليه ، فلا تعطيه قوتها ، لا تعطيه خيرها ، كما تمردت من قبل على آدم ، وصارت تنبت له شوكةً وحسكاً .

المسألة إذن لا تنحصر فقط في خبرة الإنسان بالزراعة ، ومدى إتقانه لعمله فيها وخدمته لها ، إنما يحتاج أيضاً إلى بركة . وتبارك الأرض متى أرضى قلب الله ، وإلا فإنه متى عمل الأرض لا تعود تعطيه قوتها . لهذا نحن نصلى من أجل ثمار الأرض ، لكيما يصعدنا الله كمقدارها . ويفرح وجه الأرض ، فتكثر أثمارها .

لقد لعن الرب قايين ، وأمر الأرض أن تتمرد عليه ، وماذا أيضاً عن باقي عقوباته ؟ قال له الرب :

« تائهاً وهارباً تكون في الأرض » ...

تفقد سلامك الداخلي . تحيا في قلق وإضطراب وخوف تجرى وليس من مطارد . تشعر أن كل من وجدك سيقتلك . وهكذا بدأت الأمراض النفسية تعمق جذورها في الإنسان . في خطية آدم ، دخله الخوف ، الخوف من الله وعقوبته . أما في خطية قايين ، فقد دخله الخوف من الناس ، أو الرعب بمعنى أصبح « يكون كل من وجدني يقتلني » ... (ع ١٤) .

لا سلام ، قال الرب ، للأشرار ...

الخطيئة يعيش منزعجاً باستمرار . يخاف أن تنكشف خطيئته ويعرفها الناس . يخاف من الفضيحة والعار والسمعة السيئة . يخاف من العقوبة ، سواء عقوبة القانون ، أو انتقام من أساء إليه . يرتعب من نتائج أخرى لا يعرفها . يصور له الإضطراب أموراً أخرى كثيرة ستحدث ... وأعداء كثيرين يطاردونه .

داخله يزعجه أكثر من أى أزعاج خارجي ...

أيها لاقى العذاب أكثر : قايين أم هابيل .

هابيل قاسى الألم ربما لحظة أو لحظات . ضربة قاتلة أصابته فمات . أما قايين فإنه عاش العمر كله يتألم ويتعذب ، ويحطمه القلق والخوف والرعب والإضطراب . هابيل تألم بالجسد قليلاً . أما قايين فإن نفسه تعذبت من الداخل ، ولا شك أن عذاب نفسه كانت له نتائجه على الجسد أيضاً ...

هذه إحدى عقوبات الخطية تطارد الإنسان .

« فقال قايين لسرب : ذنبي أعظم من أن يحتمل . إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى . وأكون تائهاً وهارباً في الأرض ، فيكون كل من وجدني يقتلني » ...

نلاحظ هنا أن عبارة « ذنبى أعظم من أن يحتمل » لم تكن عبارة توبة ، إنما خوف من العقوبة ...

أى أن العقوبة أعظم من إحتماله ، عقوبة أن يكون تائهاً وهارباً فى الأرض ، ومهدداً من كل أحد بالقتل ... لذلك فإن الله الرحوم ، الذى يشفق حتى على القلوب القاسية إذا ما تذلت أمامه ، طمأن قايين الخائف « وجعل له علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (ع ١٥) . بل قال له أيضاً « كل من قتل قايين ، فسبعة أضعاف ينتقم منه » .

ونلاحظ أن قايين لم يطلب مغفرة لخطيئته ، بل أنه لم يقل عبارة أخطأت . كل ما أتعبه هو العقوبة ...

وإذ جعل الرب علامة لكى لا يقتله كل من وجده ، « خرج قايين من لدن الرب ، وسكن فى أرض نود » . وسكن معه الخوف والرعب كل أيام حياته . لقد قتل أخاه فى لحظات . ولكن الخوف ظل يقتله كل يوم وكل ساعة وكل لحظة ... وظلت خطيئته أمامه كل حين ، لا تقوده إلى التوبة إنما تحطمه بالخوف . فن أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ...

هناك مجرمون يتمنون العقوبة ، هرباً من الإنزعاج الداخلى . وقد يسلمون أنفسهم للعدالة ويعترفون غير محتملين عذاب الضمير أو عذاب النفس .

داود ، قد غفر له الله خطيئته ، ونقلها عنه (١ صم ١٢) وسامحه من جهة العقوبة الأبدية . ولكن بشاعة الخطيئة ظلت أمامه فى كل حين (مز ٥٠) ، وبسببها كان يبلى فراشه بدموعه (مز ٦٠) ، ويمزج شرابه بالدموع ...

وظل قايين يطارده الخوف ، وترن فى أذنيه كلمات الرب « تائهاً وهارباً تكون فى الأرض » .

وأصعب من طرده من وجه الأرض ، أنه طرد من وجه الله أيضاً ، فن وجه الله يختفى ...

فالخطية هى انفصال عن الله ...

والخاطيء ينفصل بخطيئته عن الله . يختفى الله من حياته ، ويختفى هو من أمام وجه الله . يوجد حاجز كبير بينه وبين الله . ويشعر بهذا الفاصل ، ويفقد الدالة ومشاعر الحب ...

ولا ينكسر هذا الحاجز إلا بالتوبة ، فيصرخ الإنسان قائلاً للرب : إلى متى تحجب وجهك عني (مز ١٢) ...

ولكن الكتاب لم يقل إن قايين قد تاب ، ولم يقل إنه عاد فاصططح مع الله . ولم يقل إن اللعنة زالت عنه ، أو أن الرب عاد فرضى عليه . لقد كان أول ابن لآدم وحواء بعد خطيئتهما ، وللأسف كان ابنًا لهلاك . كان أول قاتل ، وأول إنسان ملعون ، وأول إنسان إستحق العقوبة الأبدية ، إلى جوار عقوبته على الأرض .

إنه لم يقتل هابيل ، إنما في الواقع قد قتل نفسه ... وهابيل لم يمت ، بينما قايين هو أول إنسان مات ، موتاً أبدياً .

هل نظنون أن هيرودس قد قتل يوحنا المعمدان ؟ أم الواقع أن هيرودس قد قتل نفسه . قتل روحه وحياته وأبديته . أما يوحنا فهو حي في الفردوس يتنعم ... إن الإنسان الذي يخطيء إلى غيره ، إنما يخطيء إلى نفسه .

وما أقل الخطاة ، الذين يشعرون أنهم يحطمون أنفسهم ...

فليعطنا الرب بركة هابيل البار ، أول من ذكر له الكتاب أنه قدم محرقة للرب ، وذبيحة مقبولة ، نذكرها باستمرار في كل قداساتنا . فنقول في مقدمة أوشية بخور باكر « يا الله ، الذى قبل إليه قرايين هابيل الصديق ... إقبل إليك هذا البحور من أيدينا نحن الخطاة » ...

وذبيحة هابيل الصديق تعطينا فكرة عن أهمية التقليد في الكنيسة . لأن هابيل في تقدمته لم ينفذ وصية مكتوبة ، ولم تكن هناك شريعة مكتوبة في أيامه ، ولا وصية مكتوبة تأمر بتقديم المحرقات ... إنما أخذها هابيل عن أبيه ، الذى أخذها من الله .

لم تكن هناك وصايا مكتوبة أيام هابيل . ولكن كان هناك التقليد أو التسليم . جيل يسلم جيلاً وصايا الرب . وظل الأمر هكذا في كل ذبائح نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب وأيوب ، إلى أن وصلت إلينا الشريعة المكتوبة على يد موسى النبي ، بعد آلاف من السنين عاشتها البشرية بالتقليد والتسليم من الآباء ...

وجيل جداً هو قول الكتاب عن تقدمه هابيل البار : « وقدم هابيل أيضاً من أبقار غنمه ومن سمانها » (ع ٤) .

لقد قدم البار أفضل ما عنده للرب .
بل أنه نفذ وصية البكور ، قبل أن يقول الرب على يد موسى النبي « قدس لي كل
بكر ، كل فاتح رحم ... إنه لي » (خر ١٣ : ٢) .

أتراه قدم البكور ، بروح النبوة ، قبل الوصية المكتوبة ؟ أم تراه فعل ذلك عن
طريق التقليد والتسليم أيضاً ؟ أم هو القلب البار الحساس الذي يدرك مشيئة الرب
ورغبته ، دون أن يتلقنها من معلم ... ؟
إنه هابيل الذي شهد له أنه بار ، وشهد الله لقرابينه . « وبه وإن مات يتكلم
بعد » (عب ١١ : ٤) .

ولقد ذكره بولس الرسول في مقدمة رجال الإيمان : فقال « بالإيمان ، قدم هابيل
لله ذبيحة أفضل من قايين » (عب ١١ : ٤) . إذن لم تكن هذه الذبيحة مجرد أمر تَعَوُّده
هابيل ، أو تسلمه بلا فهم . وإنما كان عملاً من أعمال الإيمان « به شهد له أنه بار » ...
إن هابيل يمثل الإيمان وهو بكر ، في بداية معرفته . إنه أول إنسان في العالم ،
وصف بكلمة الإيمان .

تري ماذا كان الإيمان في أيام هابيل ؟ ...
إنه على أية الحالات كان بداية لذلك المبدأ اللاهوتي القائل « بدون سفك دم لا
تحصل مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) .

الخطية كشفت عرى الإنسان آدم ، والذبيحة غطته ، حينما صنع له الله أقصة من جلد
(تك ٣ : ٢١) ، ورفض أن يغطي بورق التين ، وبشيء من ثمار الأرض .

وعرف هابيل هذه الحقيقة : الله يريد الدم لا ثمار الأرض . فقدم الدم من
أبكار غنمه ومن سمانها . بينما قدم قايين من ثمار الأرض . وكأنه لا يؤمن بما حدث
لأبويه ...

وكانت ذبيحة هابيل رمزاً لذبيحة السيد المسيح .

وكان هابيل في ذبيحته كاهناً للرب .

ولم يكن قايين كذلك ...

ولم يذكر الكتاب خطية إرتكبا هابيل ، بل شهد له السيد المسيح نفسه أنه بار

وإذا كنا بالبر الذي يناله كل من يقدم ذبيحة للرب .

أستطيع أيضاً أن أقول إن هابيل كان أول شهيد :

لقد قُتل لأجل بره ، وبسبب ذبيحته التي قبلها الرب ، ورضى عنها ...

إنه أول دم بشري يتقبله الرب .

إنه باكورة الدماء الزكية المقدسة التي قبلتها السماء ، عبر الأجيال الطويلة ...

إنه الباكورة التي قدمت بكورها للرب .

وحسناً إنه إنتقل إلى السماء بعد تقديمه الذبيحة .

إنتقل وهو في حالة بر ، مقدس بالذبيحة التي قدمها .

وعزير عند الرب موت أتقيائه ...

فهرست

صفحة

شخصیات الكتاب	٦
آدم وحواء	١٣
قاین وهابیل	٤١

فصل الكتاب

بسم الآب والابن والروح القدس
 الإله الواحد أمين
 في سير قديس الكتاب ، لا تريد أن
 لتدرس تاريخاً ، إنما تريد أن تفهم حياة .
 وقد كان الكتاب المقدس صريحاً
 معنا ، وواقعياً إلى قدم لنا قديسين ، من نفس
 طبيعتنا ، التي يمكن أن نخطئ ، ونسقط
 ونكسب خطيئة في حياة أولئك القديسين ،
 كان أمراً عابراً ، ولم يكن خطأ دائماً في
 حياتهم .
 والخطأ أصعب صور رذيلة من التوبة .
 والكتاب يقدم لنا قديسين من كل نوع ،
 ومن كل سن ، وفي كل طبيعة .
 لتدرس في حياتهم عمل النعمة الإلهية ،
 كيف صالحتهم ، وكوتبتهم ، أو كيف حولتهم
 من ضلالتهم إلى نور .
 وتدرس أيضاً معاملات الله مع الناس .
 لتروك إلى هذه الصفحات لتقرأ
 النصبة البشرية منذ آدم .
 ولأنك تحتفظ بهذه العمولة كاملة ،
 لكل شخصيات الكتاب ، أقديس منها ،
 وغير القديس .
 آمين شتوده الثالث